مكتبة حراء

المشترك الإنساني

نحو بناء معرفي لثقافة الحوار والتعايش

إعداد
عبد السلام كمال أبو حسن

تقديم فضيلة العلامة
أ.د. علي جمعة
عضو هيئة كبار العلماء

دار الأنبعاث

مكتبة حراء

المشترك الإنساني

نحو بناء معرفي لثقافة الحوار والتعايش

دار الانبعاث للنشر والتوزيع

المشترك الإنساني

نحو بناء معرفي لثقافة الحوار والتعايش

الطبعة الأولى

Copyright©2021 Dar al-Inbiath

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

إعداد

عبد السلام كمال أبوحسن

الإخراج الفني

أحمد شحاتة

ياووز يالمز

رقم الإيداع

2021/1600

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-6704-12-1

رقم النشر

022

دار الانبعاث للطباعة والنشر والتوزيع

Tel: +20123201002 - +201066067034
E-mail: daralinbiath@gmail.com
www.daralinbiath.com

المشترك الإنساني

نحو بناء معرفي لثقافة الحوار والتعايش

إعداد
عبد السلام كمال أبو حسن

www.hiragate.com

بسم الله الرحمن الرحيم

عالمنا اليوم في أشد الحاجة إلى التسامح الفعال والتعايش الإيجابي بين الناس أكثر من أي وقت مضى، نظرًا لأن التقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات يزداد يومًا بعد يوم بفضل ثورة المعلومات والاتصالات التي أزالت الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب.

أ.د. محمود حمدي زقزوق

المشترك الإنساني هو القيم الكونية التي لا تختلف فيها العقول، ولا تتأثر بتغير الزمان أو محددات المكان أو نوازع الإنسان، لأن لها منابت وأصولاً تحفظها من عوادي الدهر وتعسفات البشر.

الشيخ عبد الله بن بيه

إن مستقبل الإنسانية يتعلق بحل إشكالية التفاهم المتبادل بين الشعوب. إن التفاهم والتعايش بين طرفين مختلفين في الفكر والعقيدة، لا يتحقق إلا إذا توافر لدى كل منهما رغبة في العيش المشترك، وتسامح حول الأمور المختلف فيها، وقبول من الطرفين بالتعددية العقائدية. ولا يكفي أن يؤمن بالتعايش والتسامح طرف واحد بينما الطرف الآخر ينكر ذلك.

أ.د. محي الدين عفيفي

الحوار مبدأ راقٍ لا يكاد يرفضه عقل سليم، وهو خطوة أولى نحو التعرف على الذات وإزالة سوء الفهم داخل الدائرة الواحدة، وهو المدخل الإنساني للاقتراب من الدوائر الخارجية.

أ.د. مريم آيت أحمد

إن الحوار اليوم قد تجاوز بمراحل كونه مجرد اختيار إلى صيرانه ضرورة، ولا سيما أن البشرية اليوم قد أصبحت أفعل وأقدر في مجالات التدمير منها في العصور التي مضت.

أ.د. أحمد عبادي

إنني أُومِن أنّ أيَّ دينٍ لم تحرفه العقولُ الضعيفة ولا الأنفس المريضة، سيكون داعيًا للرحمة والعدل والسماحة والتعايش، سواء أكان دينًا صوابًا في أصله -وهي الشرائع الربانية التي نزلت على الأنبياء ﷺ كاليهودية والنصرانية والإسلام- أم كان دينًا باطلاً وضعيًا؛ لأن حكمة العقلاء ومصالح البشر، سوف تصقله ليكون حكمةً بشرية تنشد الرحمة والعدل حسب قدرتها البشرية.

أ.د. الشريف حاتم العوني

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الحق إلى كافة الخلق، وغمام الرحمة الصادق البرق، والحائز في ميدان اصطفاء الرحمن قصب السبق، خاتم الأنبياء ونبي الهدى، الذي طهر قلبه وغفر ذنبه وختم به الرسالة رَبُّهُ، خير من وطئ الثرى، وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد

فالمشترك بيننا كمسلمين وبين أهل الأرض أكبر وأكثر مما نتصوره، وانطلاقًا من هذه الحقيقة نستطيع أن نكون أكثر مرونة في فهم الآخرين، وأكثر مرونة في إفهامهم من نحن، وأكثر مرونة في بناء ثقافة الحوار، وأكثر مرونة في التعاون على عمارة الأرض، وأكثر مرونة في بناء المعرفة الإنسانية والمشاركة الحضارية.

هذا ما يهدف إليه كتاب "حراء" الذي بين أيدينا، تحت عنوان:

"**المشترك الإنساني نحو بناء معرفي لثقافة الحوار والتعايش**".

لقد تغيّر وجهُ الزمان، حيث تغيّر البرنامج اليومي للإنسان في خلال المائة سنة الواقعة بين ١٨٣٠م و١٩٣٠م في هذه الفترة اكتشف الإنسان واخترع ما غيَّر برنامجه اليومي، وغيَّر العلاقات الاجتماعية والإنسانية، وغيَّر طريقة التعامل مع الكون المحيط بنا والطبيعة التي خلقها الله ﷻ من أجلنا، من أرض أو سماء في مجالات الاتصالات والمواصلات والتقنيات الحديثة، وهي التغيَّرات التي جعلت العالمَ قرية واحدة، وجعلت أخباره وتأثير بعضه في بعض وكأننا نعيش في جوار واحد، وجعلت عالم الأشياء وعالم الأشخاص وعالم الأحداث وعالم الأفكار التي يجمعها جميعًا عالم النظم، تشهد تغيَّرا جذريًّا واضحًا يحتاج منا إلى أن ننظر نظرة جديدة حتى ندرك الواقع إدراكًا صحيحًا، وحتى نستطيع أن نوقع عليه مبادئ ديننا وعقيدتنا ورؤيتنا الكلية إيقاعًا مثمرًا، وحتى يرضى الله ﷻ عنا بامتثال ما نبه عنه النبي ﷺ فيما أخرجه ابن حبان حكاية عن حكمة آل داود وهو يقول: "أن يكون المؤمن مدركًا لشأنه عالمًا بزمانه".

كل ذلك دفع الكُتّاب الأجلاء في هذا الكتاب لأن يغوصوا في مصادر الإسلام من قرآن وسنة مشرفة وتاريخ منير بنى حضارة إسلامية لا تنكر ولا تهمل، ويستخرجوا معانيَ -وإن كانت كامنة في ديننا- إلا أنهم صاغوها -عبر أعداد مجلة حراء المختلفة- بلغة تبلغ الخطاب المعاصر وتُفهمه وتُظهر له ما قد يكون قد انقطع من اختلاف الخطاب والأداء بين الأجيال، فتكلموا عن التسامح في الإسلام، وتكلموا عن وثيقة المدينة المنورة، تلك الوثيقة التي بينت موقف الدين من قضية المواطنة وبينت كيف يكون الحال في

مجتمع متعدد الثقافات والأديان، وبيَّنوا فلسفة الإسلام في التعايش مع الآخر وبيَّنوا التدين والتحضر في تواصله الإيجابي، وبيَّنوا الحوار بين الحضارات وما معنى المشترك الإنساني وما معنى ثقافة الحوار، كما بيَّنوا أيضًا المستويات التي يكون بها الحوار الحضاري مع الآخر، وأَجْلَوا في طيات الكتاب علاقة الإسلام بالسلام وأوضحوا دلالاتها ومفهومها وتطبيقها في إطار الحياة البشرية، كذلك ضمّنوا فيه تفاعل الإسلام مع الحضارات والثقافات المتنوعة، وأظهروا من خلاله أن رسالة الإسلام جاء خطابها شاملاً للجنس الإنساني عامة، لم تميز ولم تحيز ولم تُعلِ طرفًا على طرفٍ، كما أكدوا فيه على دور الإسلام في السلم العالمي ومساواته بين البشر مهما اختلفت أعراقهم وألوانهم، وأوردوا أيضًا مسألة الذات والآخر وأنه لا مناص من التواصل والتفاعل والمثاقفة مع الآخر.

وعن دور الجالية المسلمة في الغرب وآليات الانفتاح الإيجابي، ودورهم في بناء جسور التواصل والثقة وتصحيح ما علق في أذهان الغير من مزاعم باطلة وصور سلبية عن الإسلام أورد أحد الكتاب هذا الدور الهام في واحدٍ من مقالات هذا الكتاب.

ورغم الاختلاف القائم إلا أن التعايش واقع وعن كيفية هذه التعايش وإمكانية خلقه وتجديده أوضح مقال آخر ضمان العيش المشترك من خلال نظرية القرآن الحوارية والتواصلية بين البشر، وأنها الكفالة والضمانة المثلى للأمن الروحي والحرية الفكرية والعيش المشترك، وبيّن كذلك مقال آخر في ثنايا الكتاب أدبيات

الحوار والتواصل من منظور القرآن الكريم، ولكونه أصبح ضرورة إنسانية وحياتية ملحة أوجبتها المدخلات والظروف الراهنة جاء التأكيد على أدبيات هذا الحوار.

لقد أكد هذا السفر الثمين في نهايته على قيمة الحب وأنها المشترك الإنساني الذي يستوعب الإنسان من خلاله أي قيمة، والتي من خلالها تنعكس بالإيجاب على كل القضايا الأخرى، وغير ذلك من الموضوعات التي جمّعها معدّ هذا الكتاب الأستاذ عبد السلام كمال أبو حسن من كبار الكتاب والمفكرين المسلمين والمتصدرين للدعوة إلى الله على بصيرة وعلى هدي سيدنا رسول الله. ﷺ ونرجو الله ﷻ أن ينفع بهذا الكتاب الذي يُغني عن قراءة كتب كثيرة متنوعة قد لا تتوفر لكل أحد، وندعو الله ﷻ أن يجعل ثواب من عمل على إخراج هذا الكتاب في ميزان حسناتهم يوم القيامة، اللهم آمين.

أ.د. علي جمعة
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف
٥ ربيع الثاني ١٤٤٢هـ
٢٠ نوفمبر ٢٠٢٠م

فهرس

المقدمة ٧

أ.د على جمعة

التسامح في الإسلام..... ١٣

أ.د محمود حمدي زقزوق ﷺ

وثيقة المدينة المنورة: وثيقة السلام في مجتمع متعدد الثقافات والأديان ... ٢٢

علي بولاج

فلسفة الإسلام في التعايش مع الآخر الديني والثقافي ٤٤

أ.د. محمد عمارة ﷺ

التديّن والتحضر نحو تواصل إيجابي..... ٥٩

أ.د. عبد الرازق وورقية

الحوار بين الحضارات مقاربة تصنيفية مقترحات منطلقية ٧٧

أ.د. أحمد عبادي

الحوار الحضاري؛ صوب مقام التعارف..... ٨٩

أ.د. سمير بودينار

المشترك الإنساني وثقافة الحوار..... ٩٥

الشيخ عبد الله بن بيه

مستويات الحوار الحضاري مع الآخر..... ١٠٥
أ.د. مريم آيت أحمد

السلام وموقف الإسلام منه..... ١١٤
أ.د. إسحاق بن عبد الله السعدي

الإسلام والتفاعل بين الحضارات ١٢٦
د. رقية أهجو

الإسلام والسلم العالمي ١٣٥
أ.د. الشريف حاتم العوني

الذات والآخر ودعوة إلى التواصل والمثاقفة ١٤٧
أ.د. بركات محمد مراد

الجالية المسلمة في الغرب وآليات الانفتاح الإيجابي ١٥٥
د. محمد الدرداري

كيف نتعايش رغم اختلافنا؟..... ١٦٢
د. عبد العزيز الإدريسي

الحوار ضرورة عصرية ١٦٨
أ.د. محي الدين عفيفي

أدبيات الحوار والتواصل من منظور قرآني ١٧٣
د. العطري بن عزوز

المشترك الإنساني في قيمة الحب ١٨١
أ.د. محمد جكيب

حب الإنسان..... ١٩١
فتح الله كولن

التسامح في الإسلام[1]

أ.د محمود حمدي زقزوق ﷾[*]

الإسلام دين عالمي يتجه برسالته إلى البشرية كلها، تلك الرسالة التي تأمر بالعدل وتنهى عن الظلم وتُرسي دعائم السلام في الأرض، وتدعو إلى التعايش الإيجابي بين البشر جميعاً في جو من الإخاء والتسامح بين كل الناس بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم. فالجميع ينحدرون من "نفس واحدة"، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾(النساء: ١).

وعالمنا اليوم في أشد الحاجة إلى التسامح الفعال والتعايش الإيجابي بين الناس أكثر من أي وقت مضى، نظرًا لأن التقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات يزداد يومًا بعد يوم بفضل ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية التي أزالت الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب، حتى أصبح الجميع يعيشون في قرية كونية كبيرة.

---

[1] نشر هذا المقال في العدد ٣ من مجلة حراء سنة ٢٠٠٦

[*] وزير الأوقاف المصري الأسبق وعضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

والإسلام دين يسعى من خلال مبادئه وتعاليمه إلى تربية أتباعه على التسامح إزاء كل الأديان والثقافات. فقد جعل الله الناس جميعاً خلفاء في الأرض التي نعيش فوقها، وجعلهم شركاء في المسئولية عنها، ومسئولين عن عمارتها ماديًّا ومعنويًّا كما يقول القرآن الكريم: ﴿**هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾(هود: ٦٢). أي طلب منكم عمارتها وصنع الحضارة فيها. ومن أجل ذلك ميّز الله الإنسان بالعقل وسلّحه بالعلم حتى يكون قادرًا على أداء مهمته وتحمل مسئولياته في هذه الحياة.

ولهذا يوجه القرآن الكريم خطابه إلى العقل الإنساني الذي يعد أجلّ نعمة أنعم الله بها على الإنسان. ومن هنا فإن على الإنسان أن يستخدم عقله الاستخدام الأمثل؛ وفي الوقت نفسه يطلب القرآن من الإنسان أن يمارس حريته التي منَحها الله له والتي هي شرط ضروري لتحمل المسئولية. فالله سبحانه لا يرضى لعباده الطاعة الآلية التي تجعل الإنسان عاجزاً عن العمل الحر المسئول. فعلى الإنسان إذن أن يحرص على حريته وألا يبددها فيما يعود عليه وعلى الآخرين بالضرر.

ومن شأن الممارسة المسئولة للحرية أن تجعل المرء على وعي بضرورة إتاحة الفرصة أمام الآخرين لممارسة حريتهم أيضاً؛ لأن لهم نفس الحق الذي يطلبه الإنسان لنفسه. وهذا يعني أن العلاقة الإنسانية بين أفراد البشر هي علاقة موجودات حرة يتنازل كل منهم عن قدرٍ مِن حريته في سبيل قيام مجتمع إنساني يحقق الخير للجميع. وهذا يعني بعبارة أخرى أن هذا المجتمع الإنساني المنشود لن يتحقق

على النحو الصحيح إلا إذا ساد التسامح بين أفراده، بمعنى أن يحب كل فرد فيه للآخرين ما يحب لنفسه.

التسامح الإيجابي الشامل

ولا شك في أن وعينا بأننا خطّاؤون[٢] يواكبه في الوقت ذاته وعينا بمسئوليتنا التي ترتكز عليها كرامتنا الإنسانية، الأمر الذي يمكّننا من السلوك القويم المتسامح حيال الآخرين الذين يشاركوننا في الإنسانية، والذين ينبغي أن يربطنا بهم رباط التضامن الإنساني المشترك. والتسامح -كما ألمحنا- يقوم على الاعتراف بحرية وكرامة كل إنسان. ونحن مطالَبون أخلاقيّا ودينيّا أن نكون متسامحين مع كل البشر بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية والثقافية والدينية والأيديولوجية. ولا يكتفي الإسلام بتعليم أتباعه هذا التسامح الشامل بوصفه شرطاً من شروط السلام الضروري للمجتمع الإنساني، بل يطلب منهم أيضاً الالتزام بالسلوك العادل الذي لا يقبل بالآخر فحسب، بل يحترم ثقافته وعقيدته وخصوصياته الحضارية. وخَير وصف يمكن أن نطلقه على هذا التسامح أنه تسامح إيجابي وليس تسامحاً حيادياً. وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿**لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾(الممتحنة: ٨). ومن الملاحظ في هذه الآية وفي آيات أخرى كثيرة أن القرآن لم يستخدم أسلوب الأمر بطريق مباشر، وإنما استخدم أسلوب التنبيه والتوجيه

(٢) إشارة إلى الحديث النبوي: "كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون". (رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجة).

الذي يتطلب استخدام العقل الإنساني. ومن عادة القرآن أن يعالج المشكلات بطريقة متدرجة تتفق مع ثقافة كل فرد. والإسلام لا يريد أن يقول للناس كلاماً ليحفظوه ويعملوا به بطريقة آلية، وإنما يريد تربية النفس وتحقيق الذات والعمل المسئول الذي يؤدَّى عن اقتناع.

ويشتمل النص القرآني الذي أوردناه على ثلاثة أمور؛ أولها: أن الله سبحانه وتعالى لم ينه عن التسامح مع الآخرين. وثانيها: أن التسامح مع الآخرين الذين لم يعتدوا على المسلمين والتعايش الإيجابي معهم بالبر والقسط هو العدل بعينه. وثالثها: التأكيد على أن من يسلك هذا السبيل يَحظَى بحبّ الله سبحانه وتعالى. وبهذا الأسلوب المقنع الذي يخلو من الإكراه على فعل شيءٍ ما أو الامتناع عنه تصل الرسالة القرآنية -رسالة التسامح- إلى النفوس في يسر وسهولة، وتحقق الهدف المطلوب وهو نشر التسامح بين الناس على أوسع نطاق.

التسامح والتعددية

ومن هنا لا يجوز أن يُنظر إلى اختلاف الجماعات البشرية في أعراقها وألوانها ومعتقداتها ولغاتها على أنها تمثل حائلاً يعوق التقارب والتسامح والتعايش الإيجابي بين الشعوب. فقد خلق الله الناس مختلفِين: ﴿**وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ**﴾(هود: ١١٨-١١٩)، كما يقول القرآن الكريم. ولكن هذا الاختلاف بين الناس في أجناسهم ولغاتهم وعقائدهم لا ينبغي أن يكون منطلقاً أو مبرراً للنزاع والشقاق بين الأمم والشعوب، بل الأحرى أن يكون هذا

الاختلاف والتنوع دافعاً إلى التعارف والتعاون والتآلف بين الناس من أجل تحقيق ما يصْبون إليه من تبادل للمنافع وتعاون على تحصيل المعايش وإثراء للحياة والنهوض بها. ومن هنا يقول القرآن الكريم: ﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾(الحجرات: ١٣)، والتعارف هو الخطوة الأولى نحو التآلف والتعاون في جميع المجالات.

التسامح والحوار

إن الحوار في معناه الصحيح لا يقوم ولا يؤدي إلى الهدف المنشود إلا إذا كان هناك احترام متبادل بين أطراف الحوار، واحترام كلِ جانب لوجهة نظر الجانب الآخر. وبهذا المعنى فإن الحوار يعني التسامح واحترام حرية الآخرين، واحترامُ الرأي الآخر لا يعني بالضرورة القبول به. وليس الهدف من الحوار مجرد فكّ الاشتباك بين الآراء المختلفة أو تحييد كل طرف إزاء الطرف الآخر، وإنما هدفُه الأكبر هو إثراء الفكر وترسيخ قيمة التسامح بين الناس، وتمهيد الطريق للتعاون المثمر فيما يعود على جميع الأطراف بالخير، وذلك بالبحث عن القواسم المشتركة التي تشكل الأساس المتين للتعاون البنّاء بين الأمم والشعوب. والحوار بهذا المعنى يُعد قيمة حضارية ينبغي الحرص عليها والتمسك بها وإشاعتها على جميع المستويات.

والوعي بذلك كله أمر ضروري يجب أن نعلمه للأجيال الجديدة، وبصفة خاصة عن طريق القدوة وليس عن طريق التلقين. ولا جدال في أن الحوار قد أصبح في عصرنا الحاضر أكثر إلحاحاً من أي

وقت مضى، بل أصبح ضرورة من ضرورات العصر، ليس فقط على مستوى الأفراد والجماعات، وإنما على مستوى العلاقات بين الأمم والشعوب المختلفة.

وإذا كانت بعض الدول في القرن الجديد لا تزال تفضل شريعة الغاب بدلاً من اللجوء إلى الحوار، فإن على المجتمع الدولي أن يصحّح الأوضاع، ويعيد مثل هذه الدول الخارجة على القيم الإنسانية والحضارية إلى صوابها حتى تنصاع إلى الأسلوب الحضاري في التعامل وهو الحوار. فليس هناك من سبيل إلى حل المشكلات وتجنب النزاعات إلا من خلال الحوار.

ومن منطلق الأهمية البالغة للتعارف[٣] بين الأمم والشعوب والحضارات والأديان -على الرغم من الاختلافات فيما بينها- كانت دعوة الإسلام إلى الحوار بين الأديان. وذلك لما للأديان من تأثير عميق في النفوس. ويعد الإسلام أول دين يوجه هذه الدعوة واضحة صريحة في قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾(آل عمران: ٦٤). ولم يكتفِ القرآن بمجرد الدعوة إلى الحوار بين الأديان، بل رسم المنهج الذي ينبغي اتباعه في مثل هذا الحوار. وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ (العنكبوت: ٤٦).

(٣) كما جاء في الآية الكريمة: ﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾(الحجرات: ١٣).

أما الحكم على الآخرين الذين يشاركوننا في الإنسانية، فيجدر بنا أن نتركه لله جل شأنه؛ وخير لنا بدلاً من ذلك أن نجتهد في أن نسلك حيالهم مسلكاً عادلاً متسامحاً طالما لم يسيئوا إلينا. فالدين لا يحفل إلا بالأعمال التي نتحمل نحن مسئوليتها؛ ولهذا يقول القرآن الكريم في موضع آخر: ﴿**وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾(الشورى: ١٥).

التسامح الديني

ونظراً لما للدين من عمق عميق في النفوس فإن الحوار بين الأديان لا يمكن أن يكتب له النجاح إلا إذا ساد التسامح بين المتحاورين، وحلّ محل التعصب المعتاد بين أتباع الديانات المختلفة. وقد حرص الإسلام كل الحرص على تأكيد هذا التسامح بين الأديان بجعله عنصراً جوهرياً من عناصر عقيدة المسلمين.

فالأديان السماوية جميعها تُعد في نظر الإسلام حلقات متصلةً لرسالة واحدة جاء بها الأنبياء والرسل من عند الله على مدى التاريخ الإنساني. ومن هنا فإن من أصول الإيمان في الإسلام الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله وما أنزل عليهم من وحي إلهي. وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ**﴾(البقرة: ٢٨٥).

ومن أجل ذلك يمتاز الموقف الإسلامي في أي حوار ديني بأنه موقف منفتح على الآخرين، ومتسامح إلى أبعد الحدود. فقد أقر

الإسلام منذ البداية التعددية الدينية والثقافية، وصارت هذه التعددية من العلامات المميزة في التعاليم الإسلامية. والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة. فقد تأسس مجتمع المدينة المنورة بعد هجرة الرسول إليها على التعددية الدينية والثقافية، ومارس المسلمون ذلك من بعده عملياً على مدى تاريخهم الطويل.

ويؤكد ذلك ما يعرفه التاريخ من أن المسلمين لم يُكرِهوا أحداً على الدخول في الإسلام. فالحرية الدينية مكفولة للجميع، وتعد مبدأ من المبادئ الإسلامية الذي أكّده القرآن الكريم في قوله: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾(البقرة: ٢٥٦)، وفي قوله في موضع آخر: ﴿**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾(الكهف: ٢٩). ومن القواعد الأساسية المعروفة في الشريعة الإسلامية في شأن التعامل مع أهل الكتاب القاعدة المعروفة: "لهم ما لنا وعليهم ما علينا"، أي لهم ما لنا من حقوق، وعليهم ما علينا من واجبات.

خاتمة

ومما تقدم يتضح لنا بجلاء إلى أي مدى يعتبر التسامح الإيجابي -بوصفه تسامحًا شاملاً أو تسامحًا دينيًّا- من العناصر الأساسية في تعاليم الإسلام، وبالتالي من الأهداف التي ترمي إليها التربية الإسلامية.

ومن هنا فإن التزام المسلمين بذلك وحمايتهم لحقوق أتباع الديانات الأخرى الذين يعيشون في المجتمعات الإسلامية أمر يدخل في إطار التزاماتهم الدينية التي تقضي بالحفاظ والدفاع عن

الحقوق الإنسانية العامة للجميع. وأي تجاوز أو عدوان على هذه الحقوق يعد تجاوزاً وعدواناً على تعاليم الدين، وهو أمر يجب على المسلمين التصدي له بكل الوسائل. وفي هذا الإطار يُفهم أيضاً حديث النبي ﷺ: "**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**"(رواه مسلم). ومن هنا فإنه ليس من التسامح في شيء الوقوف موقف المتفرج حيال الظلم والقسوة اللذين يتعرض لهما أي إنسان، بصرف النظر عن جنسه أو لونه أو عقيدته.

وفي الختام أود أن أشير إلى إحدى المأثورات الثابتة عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه والتي تعد نموذجاً رائعاً على التسامح الإسلامي الإيجابي. فقد كان عمر رضي الله عنه يتجول كعادته في شوارع المدينة المنورة يتفقّد أحوال الرعية، فرأى شيخاً طاعناً في السن يتسول في الطريق، فسأل عن أمره وعلم أنه يهودي. فحزن الخليفة لما أصاب هذا الشيخ الهرم مما اضطره إلى التسول، وأمر بأن يُخصَّص له ولنظرائه معاش ثابت من بيت مال المسلمين يتيح له حياة كريمة. وهذا الخليفة هو نفسه صاحب العبارة الشهيرة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً".

ومن هذه الأمثلة -وغيرها كثير- يتجلى بوضوح مدى حرص الإسلام على الدفاع عن حرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية العامة بصرف النظر عن انتماءاته العِرقية أو الدينية أو الثقافية. وذلك كله يعبر تعبيراً لا يقبل التأويل عن التسامح الإسلامي الذي سيظل عنواناً على هذا الدين إلى آخر الزمان.

وثيقة المدينة المنورة:
وثيقة السلام في مجتمع متعدد الثقافات والأديان[1]

علي بولاج[*]

لا نبالغ إن قلنا إن "الحوار" أصبح سمة عهدنا الحالي. الحوار يعني قيام المجموعات المختلفة للجماعات الإنسانية التي تعيش معًا بحوار فيما بينها محاولين بذلك فهْم أحدهم للآخر والاعتراف به واستخراج الأسس المشتركة الموجودة بينهم على قدر الإمكان والتي تشكّل أرضية قانونية تساعدهم على العيش معاً بأمن وسلام.

ومن زاوية النظرة القرآنية فإن البشر خُلقوا بخصائص غنية ومختلفة، وإن من الخطأ اتخاذ هذا الاختلاف سببًا للصراع وللخصام؛ فمثل هذا الخطأ سيؤدِّي إلى الإخلال بالأمن وبالسلام، ويُلحق ضررًا كبيرًا بالإنسانية، وينسف جميع جسور التفاهم. بينما الصواب هو عدّ كل هذه الاختلافات كزهور فوّاحة تملك كل زهرة منها جمالاً وعطراً خاصّاً بها تشكل حديقة إنسانية مباركة.

---

[1] نشر هذا المقال في العدد ٣ من مجلة حراء سنة ٢٠٠٦.

[*] كاتب وباحث تركي، الترجمة عن التركية أورخان محمد علي

هناك طريقان لتعايش الناس معًا؛ أحدهما استعمال القوة والبطش، والثاني قيام الأناس الأحرار بالوصول إلى التفاهم فيما بينهم وإرساء هذا التفاهم بعقد قانوني معيَّن، وتعيين أسلوب التصرف والتعامل وحقوق كل إنسان ومسؤولياته. ولم توضع الدساتير والقوانين والعهود والمواثيق الإنسانية إلاّ لتأمين هذا الأمر. ولا شك أنه لولا وجود متونِ ونصوص المعاهدات والمواثيق لَما تحقق أي سلام اجتماعي ولا أي وحدة سياسية. ولكن المهم هنا أن هذه المعاهدات يجب أن تسجل بإرادة إنسانية حُرة وبرِضَا الأطراف ودون أي إكراه.

والمواضيع المطروحة حاليّاً أمام الديمقراطية مهما تباينت وِجْهات نظرنا مدحًا أو ذمًّا، وكذلك المقاييس التي يتخذها ويتّبعها أيُّ نظام سياسي هي لتأمين قيام كل مجموعة من المجموعات الاجتماعية المختلفة باستعمال إرادتها بكل حرية لتؤثّر على مراكز اتخاذ القرارات ومعرفة مدى استعمال المؤسسات المدنيّة لحقوقها في التعبير.

ويمكن القول بأن الإسلام يملك في هذا الموضوع تراثاً غنيّاً. فقد قام التاريخ الإسلامي والتجربة التاريخية للإسلام بشكل عام على قبول الخصوصيات المتنوعة لكافة المجموعات المختلفة دينية كانت أم قومية أم ثقافية أم لغوية. وقد وَجدت أديان ومذاهب وثقافات عديدة وأقوام عديدون إمكانيةَ العيش بأمان في ظل الإسلام.

وإن وثيقة المدينة مثال واضح وجيد طبّق في الواقع العملي فعلاً وأنموذج للعيش معاً بسلام. فلنطالع وثيقة المدينة ونتفحصها من هذه الزاوية.

القيمة التاريخية للوثيقة

كان المستشرق الألماني "ولهاوسن *Wellhausen*" أول من عرّف هذه الوثيقة وقدمها للأوساط العلمية في العصر الحديث. وندين إلى الأستاذ محمد حمِيد الله ﷺ وإلى بحوثه الواسعة في اشتهار هذه الوثيقة في العالم الإسلامي، وفي معرفتنا معرفة شاملة بالظروف التاريخية وبالبيئة الاجتماعية عند صدور هذه الوثيقة.

كان أول من سجل هذه الوثيقة هو محمد بن إسحاق (توفي ١٥١هـ)؛ ويقال بأن ابن سيد الناس وابن كثير قاما بتسجيل هذه الوثيقة ودَرْجها في كتبهما؛ كما قام البيهقي بإدراج الفقرات "١-٢٣" الخاصة بتنظيم العلاقة بين المهاجرين والأنصار وبيان سنَدها. وذكر ابن هشام (توفي ٢١٣هـ) هذه الوثيقة في كتابه "السيرة النبوية" بصورة أكثر تفصيلاً من ابن إسحاق. وترِد الوثيقة أيضاً بكاملها في كتاب "الأموال" لأبي عبَيد، وفي كتاب "الأموال" لحميد بن زنجويه (توفي ٢٤٧هـ).

وتشير كتب الحديث إلى أن الفقرات "١-٢٣" التي تتناول العلاقات فيما بين المسلمين كتبت في بيت أنس بن مالك ﷺ؛ أما الفقرات "٢٤-٤٧" التي تنظم علاقات المسلمين مع المشركين واليهود فكتبت في بيت بنت الحارث. علماً بأننا -إن أهملنا أسماء القبائل والأماكن- نجد أن جميع الأسس القانونية لهذه الوثيقة وجميع الأحكام والمبادئ الواردة فيها موجودة في العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

والأرجح أن هذه الوثيقة كتبت ووقع عليها في العام الأول للهجرة (٦٢٢ م)، وقد قام "ولهاوسن" بتجزئة المتن الأصلي الذي أورده ابن هشام وأبو عبَيد إلى ٤٧ فقرة، ثم قام حمِيد الله بتجزئة بعض هذه الفقرات فيما بينها فبلغ هذا الرقم إلى ٥٢ فقرة.

البيئة الاجتماعية

إن الدعوة الإسلامية التي بدأ بها نبيّنا ﷺ في مكة عام ٦١٠م لم تجلب إلى الإسلام إلا نفَرًا معدودين. وعندما زاد عددهم بمضي الوقت جُوبهوا بعراقيل ومضايقات عديدة. وبعد مضيّ ١٣ سنة في مكة بقي عدد المؤمنين محدوداً، فلم يبق أمام الرسول ﷺ والمؤمنين إلا الخروج من مكة إلى مكان آخر يجدون فيه الحرية والأمن، لذا اضطروا إلى الهجرة إلى الحبشة مرتَين في بادئ الأمر ثم إلى المدينة.

كانت مكة من أهم مراكز السياسة والتجارة في شبه الجزيرة العربية. ومما كان يزيد من أهميتها وجود الكعبة فيها -وكانت من أهم المراكز الدينية منذ السابق- ووجود أكبر القبائل العربية وأعرقها فيها. ونظراً لخصائصها هذه، فقد نُظمت مكة تنظيمًا جيدًا من الناحية السياسية والإدارية. وبجانب مركزيتها السياسية والبيروقراطية كانت تبدو -بسبب وجود القبائل الحرة فيها- في مظهر حكم كونْفدرالي، إلا أن المدينة -مدينة الهجرة- كانت تفتقر إلى مثل هذه الوحدة السياسية. لأنه بينما كانت قبيلتا قريش في مكة وثقيف في الطائف تُحققان الوحدة السياسية، إلا أن هذه الوحدة السياسية

لم تكن متحقّقة في المدينة لوجود نزاع مستمر وحروب بين القبائل الموجودة فيها كقبيلتَي الأوس والخزرج العربيتَين والقبائل اليهودية (قبائل بني قَينقاع وبني النضير وبني قرَيظة). ويقول "ولهاوسن" إن رسول الله ﷺ نجَح في إرساء وحدة سياسية عجيبة في ذلك الجو المضطرب في المدينة بين هذه القبائل التي كانت في حاجة ماسّة إلى وحدة سياسية. وكانت هذه الوحدة السياسية أمراً جديداً وغريباً لم يألَفه العرب. وتيقن الباحثون بأن الفروق بين مكة والمدينة من ناحية البيئة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ساعدت على تجذر المسلمين في المدينة وعلى قيام وحدة سياسية جديدة هناك.

كان غياب وجود سلطة سياسية مركزية في المدينة ينعكس حتى على الحياة الاجتماعية وعلى ساحة الدفاع أيضاً. فعدم وجود دفاع مشترك في المدينة أدى إلى قيام كل قبيلة ببناء سور دفاعي قويّ لها. ويذكر ابن النجّار وجود ١٣ سوراً للعرَب. كانت هذه الأسوار بمثابة "غِيتُو" يفصل كل قبيلة أو مجموعة من القبائل عن القبائل الأخرى. وكانت مصاريف الدفاع المشترك -وهو أمر خاص باليهود- تُدفع من قبل صندوق شعبي. أما القبائل العربية فقد أسّست ما يشبه صندوق الضمان الاجتماعي لدفع مبالغ الديات. ومع أن اليهود كانوا يملكون التوراة إلا أنه لم يكن هناك قانون مكتوب ينظّم العلاقات بين الأفراد وبين القبائل. وكانت الخلافات والمنازعات تُحَلّ في الغالب حسَب الأعراف السائدة ومن قِبل حكام. ولكن نظراً لعدم وجود قوانين واضحة فإن الأطراف القوية لم تكن تأبه لقرارات هؤلاء الحكام مما كان يعني دوام الظلم وضياع الحقوق.

كانت نسبة من يقرأون ويكتبون في المدينة نسبة ضئيلة، وكان اليهود يتكلمون العربية، ويكتبون العربية بالحروف العِبرية. وكانوا يؤدون عباداتهم ويعلّمون أبناءهم في "بيت المِدْراس" أو "المدارس". بينما كان العرب محرومين حتى من هذه الفرصة الضئيلة. ونظراً لأنهم كانوا لا يملكون كتاباً (أي كانوا أمّيين) كانوا يشعرون بالضآلة والنقص أمام اليهود.

لم تكن المجموعتان العرقيتان (أي العرب واليهود) مجموعتين متجانستين. والشيء الذي يجلب الانتباه أنه بينما كانت هناك معارك بين العرب واليهود، كانت هناك معارك بين القبائل العربية ومعارك بين القبائل اليهودية كذلك. فحسَب المعلومات التي أوردها ابن هشام فإن القسم الأكبر من قبيلة بني قَينُقاع اليهودية كانوا حلفاء لقبيلة الخَزرَج العربية. وكان القسم الأكبر من قبيلتي بني النضِير وبني قرَيظة حلفاء لقبيلة بني أوس العربية. ولكن المعارك الكبيرة كانت تجري بين قبيلتَي الأوس والخزرج. ويذكر المؤرخون أن حرب «بُعاث» الطاحنة بين الأوس والخزرج استمرت ١٢٠ عامًا.

والحقيقة أن هذه الحروب الضروس بين هاتين القبيلتين -اللّتَين كانتا تنحدران من قبيلة واحدة هي قبيلة بني قَيل- دفعت المدينة وما حواليها إلى الفوضى والاضطراب، وأخلّت بالأمن وأثارت نوعًا من اليأس والقنوط. وقبل أيام من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة فكّر أهل المدينة في تنصيب عبد الله بن أُبيّ ملكاً عليهم لكي يتم تأسيس سلطة مركزية تضع حدّاً لهذه الصدامات والنزاعات.

ونظرًا لكون أهل المدينة على اتصال وثيق مع بِيزنطة ومع فارس فقد رأَوا أن النظام الملكي يمكن أن يؤسس النظام ويُنهي الفوضى. ولكن سجايا عبد الله بن أبيّ كانت ضعيفة، فقد كان شخصاً ضيق الأفق حريصاً على مصالحه، وكانت الخلافات العميقة التي تعصف بالمدينة تتجاوز طاقته كثيراً. وقد سهّل غيابُ السلطة السياسية المركزية في المدينة قدومَ رسول الله ﷺ إليها. فحسَب رأي السيدة عائشة رضي الله عنها فإن الجو المضطرب للمدينة ساعد على تقوية مكانة الرسول ﷺ في المدينة.

الأطراف الموقعة على هذه الوثيقة

كان من أوائل ما عمله الرسول ﷺ بعد وصوله إلى المدينة هو إيواء المهاجرين الجدد الذين قدموا إلى المدينة، واتخاذ التدابير اللازمة لتأمين الحاجات المعيشية الضرورية لهم ولعوائلهم. لذا قام بتأسيس علاقات التعاون الاجتماعية والاقتصادية بين مسلمي المدينة "الأنصار" ومسلمي مكة "المهاجرين"، وأطلق اسم "المؤاخاة" على هذه العلاقة. وقد اشترك في عملية المؤاخاة هذه ٤٥ أنصاريًّا و٤٥ مهاجرًا، أي بلغ المجموع ٩٠ شخصًا. وتشير المصادر التاريخية إلى أنه لم يبق هناك مهاجر لم يشترك في هذه المؤاخاة. بعد هذه التطورات التي حدثت بعد الهجرة ظهرت ثلاثة قطاعات اجتماعية في المدينة: المسلمون، اليهود، والعرب المشركون. كان المسلمون يتألفون من المهاجرين المكّيّين ومن أهل المدينة من الأنصار من قبيلتَي الأوس والخزرج. كانت مثل هذه البنية الاجتماعية شيئًا غريبًا في شبه الجزيرة العربية وغير معروف في حياة العرب وتقاليدهم.

لأن التقاليد القبلية العربية كانت قائمة على رابطة الدم والقرابة، بينما اجتمع في المدينة أناس من أديان ومن عناصر وقوميات وأماكن جغرافية مختلفة مشكّلين قطاعاً اجتماعيًا مختلفًا. والدليل على هذا أن المادة الثانية من وثيقة المدينة كانت تشير إلى جماعة سياسية قائمة على أساس الدين، وهي أمة واحدة دون سائر الناس.

ولا حاجة بنا إلى ذكر أن المدينة لم تكن مؤلَّفة من المسلمين فقط، فقد كان فيها اليهود الذين استقروا فيها منذ زمن بعيد، وكان هنالك العرب الذين لم يدخلوا في الإسلام. لذا كان أمام رسول الله ﷺ مهمة عاجلة هي التأليف بين هذه القطاعات الاجتماعية وتأمين عَيشها معاً دون مشاكل.

حل المعضلة

بدأ الرسول ﷺ -لحل المعضلة- بفحص البنية الاجتماعية والدينية والسكانية للمدينة أولاً. فقام بإحصاء سكّاني في المدينة، وهو أمر كان غريباً تماماً بالنسبة للتقاليد والأعراف التي كانت سائدة آنذاك. وقد تبين نتيجة الإحصاء أن عدد سكّان المدينة يبلغ ١٠ آلاف شخص، منهم ١٥٠٠ مسلم و٤٠٠٠ يهودي و٤٥٠٠ من المشركين العرب.

ثم خطا رسولنا ﷺ خطوة ثانية فقام بترسيم الحدود للمدينة المنورة ووضع علامات في زوايا الجهات الأربع لها، وهكذا عَيَّنَ حدود "دولة المدينة". وحسب المادة ٣٩ من الوثيقة فإن المنطقة المحصورة في ضمن هذه الحدود والواقعة في داخل وادي يثرب (الجوف) أصبحت منطقة الحرم.

كان الرسول ﷺ يحاول من جهةٍ إسكان المهاجرين وتأمين تكيّفهم مع بيئتهم الجديدة، ويحاول من جهة أخرى طَمأنَة اليهود والمشركين العرب، وكان يقول لهم بأن غايته هي تأمين جوّ آمن لمنتسبي الدين الجديد. والحقيقة أن المسلمين قد تبنَّوا مضمون الوحي الذي نزل أثناء وجودهم في مكة، والذي كان يقول ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾(الكافرون: ٦). ولكن قريشًا رفضت هذا المشروع المتضمن للسماح بتعدد الأديان، وحاولت منع الرسول ﷺ عن القيام بتبليغ دينه، واختارت فتنة الراغبين في الدخول إلى الإسلام عن دينهم بالضغوط وفنون التعذيب.

ومع أنه لا يصح سَوق الفرَضيات، إلاّ أنه يمكن القول بأن مشركي مكة لو سمحوا للمسلمين بحرية الرأي والعقيدة وبممارسة دينهم وبالحرية في التبليغ، لما تمت الهجرة ولظلّ المسلمون يعيشون مع غيرهم في مكة. إذ لم يكن للرسول ﷺ طوال العهد المكي سوى طلبَين: أحدهما حرية القيام بتبليغ الدين، والآخر حرية ممارسة مبادئ الدين في جو آمن دون أي مضايقات. وهاتان الحريتان المطلوبتان هما من مطالب البشر في الماضي والحاضر والمستقبل إلى يوم القيامة.

فلم تكن هناك حاجة في المدينة لكي يغير الرسول ﷺ إستراتيجيته التي كان يتّبعها في مكة؛ فإن حياته في المدينة كانت شرحاً وإيضاحاً واستمرارًا من الناحية الاجتماعية والحقوقية والمؤسساتية للوحي الذي نزل عليه في مكة. أي تنفيذ مشروع اجتماعي جماعي مستند

على أساس من الحرية حيث تستطيع الجماعات التي تملك حكماً ذاتياً أن تعيش معاً في مجتمع عام، أو أن تضع نظاما سياسيا ييسر للجميع العيش معاً بسلام. لا شك أن التبليغ (أي الدعوة إلى الدين الجديد) كان سيستمر ولكن بشرط عدم إكراه أي شخص على اعتناق دين معين، وكذلك رفع جميع العوائق أمام من يرغب في تبديل دينه.

وعقب الوصول إلى المدينة عقد مجلس كبير ضم الأنصار ونقباء المهاجرين حيث تم فيه في الأرجح مداولة الأحكام والأسس القانونية لعملية التآخي التي ذكرناها سابقاً. وقد تم تعيين المواد ١-٢٣ من هذه الوثيقة وتدوينها في هذا الاجتماع، أي تم تسجيل شكل العلاقات الاجتماعية والقانونية للجماعة الإسلامية وتثبيتها في مواد قانونية مكتوبة.

بعد ذلك قام الرسول ﷺ بمشاورات عديدة، ليس مع رؤساء قبائل المسلمين فحسب بل أيضاً مع زعماء وممثلي الجماعات الأخرى من غير المسلمين. كان الاجتماع الأول مع المسلمين في بيت أنس بن مالك ﷺ ثم مع زعماء المسلمين واليهود في بيت بنت الحارث حيث تم التفاهم على المبادئ الأساسية لـ"دولة المدينة" الجديدة. وفي رأي العالم المحقق محمد حمِيد الله فإن هذا "الدستور الجديد للدولة" كان من زاوية عقدًا اجتماعيًا بين الجماعات المنضوية تحت مظلة هذه الدولة الجديدة، وهذا الدستور هو وثيقة المدينة الموجودة بين أيدينا حاليًا.

لا شك أن كِلا الاجتماعَين جريا في جو من الحوار الحُر، فقد طرَح ممثلو الجماعات المختلفة طلباتهم وأَولوياتهم، واستمعوا إلى آراء الآخرين وتحادثوا فيما بينهم وحددوا النقاط الأساسية والإطار المشترك ثم سُجِّلَ مَتن هذا الإطار.

أحكام الوثيقة

يرى الأستاذ محمد حميد الله بأنه إلى جانب كون هذه الوثيقة دستور الدولة الإسلامية الأولى، فإنها كانت في الوقت نفسه أول دستور مكتوب في العالم آنذاك. ويتّضح من المعلومات الواصلة إلينا عن طريق أنس ﷺ وعن طريق آخرين بأن هذه الوثيقة ظهرت كإجماع واتفاق جميع الأطراف عليها في نهاية هذه المحادثات، وهذا هو الصحيح؛ لأنه لم يكن من الممكن قيام الرسول ﷺ الذي اضطر إلى الهجرة من مكة ليلاً وبشكل سرّي بإجبار الآخرين على كتابة وثيقةٍ تلبّي رغباته فقط، علماً بأن أتباعه لم يكونوا يتجاوزون ١٥٪ من سكان المدينة؛ أي إن إرغام الأطراف الأخرى -التي كانت أنذاك أكثر عددًا وعُدّة من أتباعه- على قبول الوثيقة كان مستحيلاً.

ومن العوامل الأخرى التي أدّت إلى قبول هذه الوثيقة الجماعية في ختام المباحثات التي أجراها النبي ﷺ مع الأطراف الأخرى والتي استندت إلى أخذ إجماع كل الأطراف، هو إيقاف الفوضى وغياب الأمن الذي تردى فيه أهل المدينة بعد ١٢٠ عاماً من القتال والبغضاء، ولم تستطع المدينة أن تصل بنفسها إلى حلٍّ واستقرار وسلام اجتماعي وسياسي مع القوى الاجتماعية فيها. فكأنها كانت

تنتظر منقذاً لها. وبينما كانت هذه المدينة تتقَهقَر باستمرار إلى الوراء اقتصادياً بسبب الحروب المستمرة، كانت هناك في الأفق نذر حرب جديدة. وفي هذا الوقت الحرِج ظهَر شخص أَجنبي عنها أشار إلى طرُق إمكانية العيش معًا بأمن مع كافة المجموعات الموجودة الأخرى، ودعا الجميع إلى الارتباط بالأسس القانونية التي تعطي لكل ذي حقّ حقَّه.

والنقطة المهمة الثانية هي قبول كل طرفٍ وجودَ الأطراف الأخرى كظاهرة وعدم القيام بأي ضغط عليها، وقبولها كما هي، وكما تقوم بتعريف نفسها، واحترام حق الحياة لها، واحترام أفكارها، في ظل القانون وتحت حمايته.

ويجب ألاّ ننسى أن اليهود -الذين كانوا طرفاً في هذه الوثيقة- لم يكونوا يُعدون "ذمّيّين" ولم يكونوا إذن يعطون الجزية لأي حكم أو سلطة أو دولة خارجهم. لأن آية الجزية نزلت في السنة التاسعة من الهجرة، وهذا يبيّن بأن الأطراف المشاركة في الوثيقة لم تكن تُعطي الجزية حتى تلك السنة، أي لم تكن تُعَدُّ من الذميين.

بجانب هذا، فقد اشترك العرب المشركون في هذه الوثيقة باعتبارهم -حسب العادات والأعراف العربية- من «المَوَالِي». فحسب هذه الأعراف إن دخلت قبيلة أو عشيرة أو جماعة في معاهدة فإن حلفاءها السابقين (أي مَوالِيها) يكونون طرفاً غير مباشر في تلك المعاهدة. ونحن نعلم من سورة «براءة» أن المشركين العرب بقوا مدة طويلة يعيشون في المدينة. وكانت سورة «براءة» إنذاراً بقطع جميع

العلاقات السياسية وإنذاراً بالحرب. ومع ذلك فإن المشركين العرب المعاهَدين كانوا مُستَثنَين من الحرب لا يمسهم أحد بسوء ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾(التوبة: ٤).

المبادئ الأساسية في الوثيقة

المبدأ الأول: يجب على كل مشروع مثالي يريد تحقيق الحق والعدل واحترام القانون والحقوق ويهدف إلى تحقيق السلام والاستقرار بين الناس أن يظهر بين الجماعات المختلفة (من الناحية الدينية أو السياسية أو الفلسفية...الخ) على أساس من معاهدة وعقد. ويجب حضور جميع الأطراف الاجتماعية أو مَن يمثّلونها في أثناء تهيئة ووضع هذه المعاهدة أو العقد، وأن يتم هذا في جوّ من الحرية والحوار والمباحثة والمذاكرة بين هذه الأطراف.

ونظرًا لكون هذه الأطراف جماعات غير متجانسة كان من الضروري أن تكون كل مادة من مواد الوثيقة تحمل طابع المشاركة وطابع الالتقاء بين هذه الأطراف، وأن تُسجَّل نتيجة التصويت عليها. وكل مادة متَّفَق عليها تشكل حكماً من أحكام الوثيقة، وكل مادة تكون موضع خلاف بين الأطراف تُترك لهذه الأطراف. فالفقرات المُجمَع عليها تدخل في ساحة المعاهدة، والفقرات المختلف عليها تدخل في مجال الحرية الذاتية (أو الحكم الذاتي). وهذا دليل على الاختلاف الثريّ الموجود ضمن الوحدة، أي هو «الجماعية» الصحيحة.

المبدأ الثاني: وهو اختيار مبدأ "المشاركة" بدلاً من مبدأ "التحكّم"، لأنه في ظل الحكم السياسي الدكتاتوري لا يتم قبول التنوع والاختلاف، بينما نرى أن وثيقة المدينة تذكر أسماء القبائل المسلمة وأسماء القبائل اليهودية قبيلة تلو قبيلة، كما تشير إلى المشركين في مادة أخرى (المادة: ٢٠/ب). وكلمة "المولى" الواردة في الوثيقة تشير إلى القبائل والعشائر والمجموعات التي دخلت في عهد أو اتفاق مع إحدى القبائل دون وجود أي قرابةِ دم معها. وهذا يعني أن كل طرف من الأطراف الاجتماعية التي وقّعت على هذه الوثيقة كان يمثل أيضاً القبائل والمجموعات المرتبطة بها، وكان يعطي نفس الحقوق والمسؤوليات لها. إلا أن المادة رقم "٢٠/ب" كانت تشير إلى أحكام خاصة بالنسبة للمشركين العرب، وكانت هذه الأحكام تؤيَّد بالمادة رقم "٤٣" كذلك. وكانت الغاية من هذه الأحكام منع مشركي المدينة من أي تعاون مع مشركي مكة سياسياً كان أم عسكرياً. هذا علماً بأن مشركي المدينة لم يكونوا يحملون أيّ رغبة في التعاون مع مشركي مكة، لأنهم كانوا يخافون من أن يجلب هذا التعاون مشاكل لهم. ولكنهم كانوا يرغبون في التمتع داخل دولة المدينة (الموضَّحة في المادة: رقم ٣٩) بكل الحقوق والحريات مع الآخرين. وقد قامت الوثيقة بتأمين وضمان هذه الحقوق والحريات لهم أيضاً وعلى أساس من القانون. ونحن نعلم بأن مشركي المدينة -وهم طرف في وثيقة المدينة- استمروا في العيش في المدينة حتى بعد معركتَي بدر وأُحد اللتَين جرَتا مع مشركي مكة، ولم يحدث أيّ مشاكل بينهم وبين المسلمين.

ونستنتج مما تقدم أن كل مجموعة دينية وعرقية كانت تملك حرية ثقافية وحقوقية؛ أي إن موقف كل طرف من ناحية الدين وتشريع القوانين المتعلقة بالمجتمع والمحاكمة والثقافة والتجارة والفن والعبادة وتنظيم الحياة اليومية...الخ، مواقف هذه المجموعات والطوائف المختلفة ستبقى كما هي وكما ترغب وتستطيع التعبير عن نفسها في هذه الساحات بحرّية من خلال المقاييس القانونية والثقافية. والمادة التي كانت تَضمن هذه الحقوق هي المادة رقم "٢٥".

أما المادة رقم "٤٢" فتذكر بأنه في حالة ظهور أي خلاف يخشى من عواقبه يتم الرجوع فيه إلى الرسول ﷺ. والظاهر من الآيات القرآنية ومن أحاديث الرسول ﷺ ومن مصادر السيرة النبوية فإن هذه المادة قد اقتُرحتْ من قبل اليهود والمشركين. لأن الوضع الفوضوي في المدينة كان قد هز الثقة والاطمئنان بين القبائل. لذا فقد اتفق جميع الأطراف على رفع المشاكل التي لا يستطيعون حلَّها إلى مرجع أعلى يقوم بحلّها. وكان هذا المرجع هو رسول الله ﷺ الذي كان مرجعاً محايداً أتى من خارج المدينة. وكان القرآن الكريم يذكر له أن بِوُسعه النظر في دعاوى القوم إن أراد ذلك ويعطيه هذه الصلاحية ﴿**فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ**﴾(المائدة: ٤٢). وعلى إثر هذه الآية كان الرسول ﷺ يخيّر مَن يراجعه منهم وكان يسألهم ما إذا كانوا يريدون أن يحكم بينهم بالقرآن أم بالتوراة؛ أي إن الرسول ﷺ كان في موضع "الحَكَم" وليس في موضع "الحاكِم". ويجب أن نضيف هنا أن النظر في قضايا غير المسلمين أو إعطاء حق حل مشاكلهم ودعاويهم -لا سيما الدعاوى المدَنية منها- في

محاكمهم وضمن قوانينهم أصبح منذ ذلك اليوم حقّاً من حقوق الذميين، واستمر هذا الأمر حتى نهاية الدولة العثمانية.

أما المادة "٢٣" فكانت تشير إلى أن الرسول ﷺ هو الحاكم المطلق في الأمور الدينية للمسلمين، ولكنه يستشير الآخرين في المسائل الإدارية. وكان هذا أمراً طبيعيّاً، لأن المسلمين كانوا قد بايعوه ورضوا بالارتباط به والانقياد له منذ البداية. وهو أمر مناسب لأسس الدين الإسلامي الذي لا يفرق بين العبادة والحقوق. وهذه المادة -كمَبدَأ أساسيٍ- تؤكّد أن الدين الإسلامي يُلزم المسلمين فقط.

والذين يتّهمون الإسلام ويَصِمونه بالدكتاتورية لا يعرفون هذه الحقيقة تمام المعرفة. لأن الناس إن كانوا أحراراً في اختيار دينهم ولهم مثل هذا الحق فإن هذا يؤدي -ويعني أيضاً- أن الأشكال المختلفة للحياة الاجتماعية والقوانين المرتبطة بها يجب أن تكون متلائمة مع الدين ومع الأفكار الدينية. وفي هذا الوضع فإن الدين الإسلامي والقوانين الإسلامية تلزم المسلمين فقط، ولا تَشمل الآخرين، ولا يُطلب من غير المسلمين التصرف حسب هذه القوانين. وهذا شرط -وكذلك ضمان- لحرية الدين والوجدان وحرية التعبير والسماح للآخرين بالعيش حسب أديانهم. وقد حقق الرسول صلى الله عليه وسلم هذين الشرطَين قبل ١٤٠٠ سنة وتم تسجيلهما في إطار القوانين والحقوق، بينما لم يتحقق هذا حتى الآن في عصرنا الحالي.

كانت هذه الوثيقة عالمية وموضوعية وفَوق الطوائف الاجتماعية، أي لم يكن بوسع المسلمين واليهود والمشركين الخروج خارج نطاقها العام.

كان هذا وحده انقلاباً وثورة كبيرة. ففي هذه البنية القانونية الجديدة التي لا تتم فيها حماية المجرم من أي طائفة أو جماعة تتجلى العدالة وتسود الطمأنينة وتظهر وتُصبح مسؤولية اجتماعية مشتركة بين جميع الأطراف (المادة: ١٢ و١٣ و٢١). ويعني هذا أن الجرائم والعقوبات أصبحت فردية، وانمحى مفهوم الجرائم والعقوبات الجماعية. ولكن قيام قبيلة الجاني بدفع دية المقتول لم يكن يُخلّ في ظروف وجو ذلك العهد بهذا الأساس القانوني. كما كانت الفقرة "١٢/ب" تسمح للأشخاص بالقيام -خارج هذه الوثيقة- بعقد اتفاقات أخرى مع موالي الأشخاص الآخرين.

إن الناحية التي تهمنا في هذه الوثيقة أنها وثيقة مكتوبة في عام ٦٢٢م، نتيجةَ مباحثات ومشاورات بين قطاعات دينية واجتماعية مختلفة، وأنها وضعت للتطبيق العملي.

هذا ويمكنا أن نستخرج كليات أساسية من أحكام هذه الوثيقة إن قمنا بعملية تجريد وتعميم لها، ومن ثم يمكن لهذه الكليات الأساسية أن تكون مصدر إلهام في حل كثير من المشاكل اليوم. وهناك العديد من الأحاديث والآيات والعديد من التجارب الذاتية والمحلية في تاريخ المسلمين، وكذلك العديد من أحكام الشريعة الإسلامية التي تؤيد المشروع الكبير الذي استهدفته هذه الوثيقة. وإن التجارب التي

حفَل بها التاريخ الإسلامي في هذا الموضوع كانت انعكاساً لروح هذه الوثيقة بخطوطها العامة وشرحاً وتطبيقاً لها. إننا ونحن نعيش في هذا العصر مشاكل عدّة مثل النزاع العربي الإسرائيلي والنزاعات الإقليمية ودعوى صراع الحضارات والعمليات الإرهابية نرى أننا في حاجة ماسّة إلى مشاريع تتخذ من التعاقد والحوار والمباحثات أساساً لها، أي نحتاج إلى مشاريع تؤمن بالتعددية وتسعى له.

وثيقة المدينة المنورة

١. هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله)، بين المؤمنين والمسلمين من قريش و(أهل) يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

٢. أنهم أمّة واحدة مِن دون الناس.

٣. المهاجرون من قريش على رَبعتهم يتعاقلون بينهم وهم يَفدُون عانِيَهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٤. وبنو عَوف على رَبعتهم يتعاقلون معاقلَهم الأولى، وكل طائفة تَفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٥. وبنو الحارث [بن الخزرَج] على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٦. وبنو ساعِدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٧. وبنو جُشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٨. وبنو النّجّار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٩. وبنو عَمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٠. وبنو النَّبِيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١١. وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وأنّ المؤمنين لا يتركون مُفرَحا (أي مثقلا بالدَّين وكثرة العيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

١٢. وأنْ لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

١٣. وأن المؤمنين المتقين [أيديهم] على [كل] مَن بغى منهم، أو ابتغى دَسيعةَ (كبيرة) ظلمٍ، أو إثمًا، أو عدوانًا، أو فسادًا بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولدَ أحدهم.

١٤. ولا يَقْتُل مؤمنٌ مؤمنًا في كافر ولا ينصر كافرًا على مؤمن.

١٥. وأنّ ذمّة الله واحدة يجبر عليهم أدناهم، وأنّ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

١٦. وأنّه مَن تبعنا من يهود فإنّ له النصرَ والأسوةَ غير مظلومين ولا مُتناصرين عليهم.

١٧. وأنّ سِلم المؤمنين واحدةٌ، لا يُسالِم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.

١٨. وأنّ كل غازية غَزَت معنا يعقب بعضها بعضًا.

١٩. وأن المؤمنين يُبِيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

٢٠. وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدًى وأقومه، ٢٠ /ب. وأنّه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن.

٢١. وأنّه مَن اعتَبط مؤمنًا قتلا عن بيّنة فإنه قَوَدٌ به إلا أن يرضى ولي المقتول [بالعقل]، وأن المؤمنين عليه كافّةً ولا يحلُّ لهم إلا قيام عليه.

٢٢. وأنّه لا يحل لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن يَنصر مُحدِثًا (مجرما) ولا يُؤوِيه، وأن من نصره أو آواه فإنّ عليه لعنةَ الله وغضبَه يوم القيامة، ولا يُؤخذ منه صرف ولا عدل.

٢٣. وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإنّ مردَّه إلى الله ﷻ وإلى محمد ﷺ.

٢٤. وأنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا مُحاربين.

٢٥. وأنّ يهود بني عوف أُمّة مع المؤمنين، لليهود دِينهم وللمسلمين دِينهم، مَواليهم وأنفسهم إلا من ظلَم وأثم، فإنه لا يُوتِغ (أي لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيتِه.

٢٦. وأنّ ليهود بني النّجّار مثل ما ليهود بني عوف.

٢٧. وأنّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

٢٨. وأنّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

٢٩. وأنّ ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف.

٣٠. وأنّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

٣١. وأنّ ليهود بني ثَعلَبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا مَن ظلم وأَثم فإنّه لا يُوتِغ إلا نفسَه وأهلَ بيته

٣٢. وأنّ جَفْنَةَ بطنٌ مِن ثعلبة كأنفسهم.

٣٣. وأنّ لبني الشُّطَيبَة مثل ما ليهود بني عوف، وأنّ البرَّ دون الإثم.

٣٤. وأنّ موالي ثعلبة كأنفسهم.

٣٥. ٣٥- وأن بطانة يهود كأنفسهم.

٣٦. وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ. ٣٦/ب. وأنّه لا يَنحَجِز على ثأرِ جُرحٍ، وأنه مَن فَتَك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظَلم، وأنّ الله على أبَرِّ هذا.

٣٧. وأنّ على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأنّ بينهم النصر على مَن حاربَ أهل هذه الصحيفة، وأنّ بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم. ٣٧/ب. وأنه لم يأثم امرؤٌ بحليفه، وأنّ النصر للمظلوم.

٣٨. وأنّ اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٣٩. وأنّ يَثرب حرامٌ جوفُها لأهل هذه الصحيفة.

٤٠. وأنّ الجار كالنفس غير مضارٍّ ولا آثِم.

٤١. وأنّه لا تُجار حرمةٌ إلا بإذن أهلها.

٤٢. وأنّه ما كان بين أهل هذه الصحيفة مِن حَدث أو اشتجار يُخاف فسادُه، فإنّ مَرَدَّه إلى الله ﷻ وإلى محمد رسول الله ﷺ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبَرِّه.

٤٣. وأنّه لا تُجار قريش ولا مَن نَصَرها.

٤٤. وأنّ بينهم النصر على مَن دهم يثرب.

٤٥. وإذا دُعوا إلى صلح يُصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دَعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين إلا مَن حاربَ في الدِّين. ٤٥/ب. على كل أناس حِصَّتهم مِن جانبهم الذي قِبَلهم.

٤٦. وأنّ يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البِرّ المحض مِن أهل هذه الصحيفة، وأنّ البِرّ دون الإثم لا يَكسِب كاسب إلا على نفسه، وأنّ الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبَرِّه.

٤٧. وأنه لا يحول هذا الكتابُ دون ظالمٍ أو آثم، وأنه مَن خرجَ آمِنٌ ومن قعد آمِنٌ بالمدينة، إلا مَن ظلم وأثم، وأنّ الله جارٌ لمن بَرَّ واتّقى ومحمد رسول الله ﷺ.

المصدر: السيرة النبوية لابن هشام، ٢/١٥٠-١٥١.

المصادر:

(١) صحيح البخاري.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد.

(٤) الوثائق السياسية لمحمد حميد الله.

فلسفة الإسلام في التعايش مع الآخر الديني والثقافي[1]

أ.د. محمد عمارة رحمه الله[*]

يؤسس القرآن الكريم لفلسفة إسلامية متميزة في رؤية الكون والحياة والعلاقات بين الأحياء. وفي هذه الفلسفة الإسلامية المتميزة معالم رئيسية، يمكن أن نشير إلى عدد منها:

أ- أن الواحدية والأحدية هي فقط للذات الإلهية.[2]

بـ- وأن التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف هو سنة إلهية كونية مطردة في سائر عوالم المخلوقات. وأن هذه التعددية هي في إطار وحدة الأصل الذي خلقه الله ﷻ. فالإنسانية التي خلقها الله من نفس واحدة تتنوع إلى شعوب وقبائل وأمم وأجناس وألوان. وكذلك إلى شرائع في إطار الدين الواحد. وإلى مناهج، أي ثقافات وحضارات في إطار المشترك الإنساني الواحد، الذي لا تختلف فيه الثقافات. كما تتنوع إلى عادات وتقاليد وأعراف متمايزة حتى داخل الحضارة الواحدة، بل والثقافة الواحدة. وهذا التنوع والاختلاف والتمايز

[1] نشر هذا المقال في العدد ٩ من مجلة حراء سنة ٢٠٠٧.

[*] كاتب ومفكر إسلامي

[2] انظر: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص:١-٤).

يتجاوز كونه "حقّا" من حقوق الإنسان، إلى حيث هو "سنة" من سنن الله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً**﴾(النساء:١).. ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾(هود:١١٨-١١٩). وكما يقول المفسرون: "فللاختلاف خلقهم". فالواحدية والأحدية فقط للحق سبحانه.. والتنوع هو السنة والقانون في كل عوالم المخلوقات.

جـ- وأن هذا التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف له مقاصد عديدة، منها: تحقيق حوافز التسابق على طريق الخيرات بين الفرقاء المتمايزين: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾ (المائدة:٤٨). ومنها: فتح أبواب الحرية للاجتهاد والتجديد والإبداع، الذي يستحيل تحقيقه دون تفرد وتمايز واختلاف: ﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا**﴾(البقرة:١٤٨).

د- وأن علاقة الفرقاء المتمايزين والمختلفين والمتعددين يجب أن تظل في إطار الجوامع الموَحِّدة، وعند مستوى التوازن والعدل والوسطية: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾(البقرة:١٤٣). "فالوسط" -بنص الحديث النبوي- هو "العدل" الذي يجب أن يحكم علاقات الفرقاء المختلفين،" (رواه الإمام أحمد).

هـ- فإذا اختلت موازين العدل والوسط بين الفرقاء المختلفين والمتمايزين في الطبقات الاجتماعية أو الشرائع الدينية أو الفلسفات

أو الحضارات، فإن الفلسفة الإسلامية تحبذ طريق "التدافع" الذي هو حراك يُعَدّل المواقف والمواقع والاتجاهات، فينتقل بها من مستوى الخلل والظلم والجور والعدوان إلى مستوى العدل والتوازن والوسط والتعايش والتعارف، مع المحافظة على بقاء التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف: ﴿**وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾(فصلت:٣٤).

وهذا "التدافع" الذي هو وسط بين تفريط "السكون والموات" وبين إفراط "الصراع"، هو المزكي للتعددية، وللتنافس والتسابق على طريق الخيرات، بينما السكون يفضي إلى الموات للمستضعفين. كما أن الصراع يفضي إلى نفس النتيجة؛ لأن القوي يصرع الضعيف، فينفرد بالساحة، وينهي التعدد والتمايز والاختلاف. فالتدافع هو الذي يُعَدِّل المواقف الظالمة، مع الحفاظ على التعددية وعلى التنافس والتسابق على طريق الخيرات. فهو سبيل للإصلاح في ظل التنوع والتعدد، وليس على أنقاض التنوع والتعدد: ﴿**وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾(البقرة:٢٥١).[٣]

هذا هو موقع التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف في الرؤية الإسلامية للكون والحياة والعلاقات بين عوالم المخلوقات والأفكار، ودور هذا التنوع في التقدم والإصلاح.

(٣) وانظر: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا..﴾(الحج:٤٠).

وذلك هو تميز الفلسفة الإسلامية بالوسطية الجامعة عن غيرها من نزعاتِ وفلسفات الدمج القسري للكل في واحد.. أو نزعات وفلسفات الصراع التي تفضي هي الأخرى إلى انفراد طرف واحد -هو الأقوى- بالساحة والامتيازات. فطرَفا الغلو يفضي كل منهما إلى ذات النهاية.. وبينهما تتميز الوسطية الإسلامية في هذا الميدان..

مع الآخر الديني

وفي دولة النبوة بالمدينة المنورة سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث سنن جسّدت فلسفة الإسلام في العلاقة بالآخر الديني؛ الكتابي منه والوضعي: اليهود والنصارى، والمجوس ومن ماثلهم.. ولقد صيغت هذه السنن النبوية، المعبرة عن هذه الفلسفة الإسلامية، في وثائق دستورية، طبّقتها دولة النبوة، ورعتها دولة الخلافة الراشدة، وظلت مبادئها مرعية إلى حد كبير عبر تاريخ الحضارة الإسلامية وأوطان عالم الإسلام.

١- مع الآخر اليهودي

وأُولى هذه الوثائق الدستورية هي "الصحيفة، الكتاب"، دستور دولة المدينة المنورة، الذي وضعه رسول الله ﷺ عقب الهجرة، وفور إقامة "الدولة" ليحدد حدود الدولة، ومكونات رعيتها (الأمة)، والحقوق والواجبات لوحدات الرعية، بمن فيهم الآخر الديني (اليهود العرب وحلفاؤهم العبرانيون)، وليحدد كذلك المرجعية الحاكمة للدولة ورعيتها.

وفي هذه الوثيقة الدستورية تحدثت موادها -التي زادت على الخمسين مادة- عن التنوع الديني في إطار الأمة الوليدة والدولة الجديدة، وعن المساواة بين الفرقاء المتنوعين، فقالت عن العلاقة بين المسلمين واليهود، أي عن التنوع الديني في إطار وحدة الأمة: "..ويهودُ أمةٌ مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، وأن بطانة يهود كأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ -"يُهلك"- إلا نفسه وأهل بيته، ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأُسوة مع البرّ المحض من أهل هذه الصحيفة، غير مظلومين ولا مُتَنَاصَرٍ عليهم، ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.."[٤]

فكانت هذه الوثيقة الدستورية أول "عقد اجتماعي وسياسي وديني" -حقيقي وليس مفترضاً ومتوهما- لا يكتفي بالاعتراف بالآخر، وإنما يجعل الآخر جزءً من الرعية والأمة والدولة -أي جزءً من الذات- له كل الحقوق، وعليه كل الواجبات، وذلك في زمن لم يكن فيه طرف يعترف بالآخر على وجه التعميم والإطلاق.

٢- مع الآخر النصراني

أما الوثيقة الدستورية الثانية، فهي خاصة بالعلاقة مع الآخر النصراني، وضعها رسول الله ﷺ لنصارى نجران -عهداً لهم ولكل المتدينين بالنصرانية عبر المكان والزمان- وذلك عند أول علاقة

[٤] مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، لمحمد حميد الله، القاهرة ١٩٥٦ م، ص١٥-٢١.

بين الدولة الإسلامية وبين المتدينين بالنصرانية. وفي هذا العهد الدستوري كتب رسول الله ﷺ: "لنجران وحاشيتها، وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض جوار الله، وذمة محمد رسول الله ﷺ، على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبِيَعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير.. أَن أحمي جانبهم وأذبّ عنهم وعن كنائسهم وبيَعهم وبيوت صلواتهم ومواضع الرهبان ومواطن السياح، وأن أحرس دينهم وملّتهم أين ما كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصّتي وأهل الإسلام من ملتي؛ لأني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم"[٥]

فبلغت هذه الوثيقة في الاعتراف بالآخر الديني، والقبول به، والتكريم له، والتمكين لخصوصياته، والاندماج معه، مالم تبلغه وثيقة أخرى عبر تاريخ الإنسانية، مع ميزة كبرى، وهي جعلها لهذا التنوع والاختلاف في إطار وحدة الأمة، تجسيدًا لفلسفة الدين الإسلامي في العلاقة بالآخر، وليس على أنقاض الدين كل دين.

٣- مع الآخر أهل الديانات الوضعية

أما السنة النبوية الثالثة التي قننت للعلاقة بالآخر الديني، فلقد مدّت نطاق الآخر إلى أهل الديانات الوضعية؛ فعاملتهم معاملة أهل الديانات الكتابية. ولقد بدأ تطبيق دولة الخلافة الراشدة لهذه السنة عندما دخل المتدينون بالمجوسية في إطار الرعية الواحدة لدولة

[٥] مجموعة الوثائق السياسية، لمحمد حميد الله، ص١٢٣-١٢٨.

الخلافة الراشدة على عهد الراشد الثاني عمر بن الخطاب ﷺ. فلقد عرض عمر ﷺ هذا الواقع الجديد على مجلس الشورى (مجلس السبعين)، وسأل: "كيف أصنع بالمجوس؟" فوثب عبد الرحمن بن عوف ﷺ فقال: "أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: "سُنّوا فيهم سنة أهل الكتاب".[٦]

التوترات الدينية استثناء من السنة النبوية

منذ القرن الهجري الأول ضمت الدولة الإسلامية أوطاناً وديارا وأقاليم، كما ضمّت شعوبًا وقبائل وديانات وفلسفات ومذاهب جسدت كل ألوان وأطياف التنوع والاختلاف الذي عرفه الإنسان في ذلك التاريخ.

ولقد تعاقب على حكم الخلافة الإسلامية، والدول التي تفرعت عنها وورثت سلطانها ألوان من الخلفاء والسلاطين والولاة، منهم الصالح ومنهم الطالح، ومنهم العادل ومنهم الجائر، ومنهم الذي جمع بين المتناقضات.

ولا يتصور عاقل أن تاريخًا بهذا الطول (قرابة خمسة عشر قرنًا) لأمة بهذا التنوع، وعالم بهذا الاتساع، وفي ظل تحديات خارجية شرسة، يمكن أن يخلو من التوترات الدينية بين الفرقاء الذين عاشوا على أرض الإسلام. لكن النظر إلى هذه التوترات الدينية التي تمثل خروجًا عن السنة النبوية التي تقررت منذ دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة يجب أن يكون في حجمها الحقيقي، وفي

[٦] فتوح البلدان، للبلاذري، القاهرة ١٩٥٦م، ص ٣٢٧.

إطار مقارنتها بما كانت عليه الحضارات الأخرى، كما حدث بين البروتستانت والكاثوليك في الحروب الدينية الأوروبية التي دامت أكثر من قرنين، وأبيد ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا، والحروب بين البيض والسود في أمريكا.. وفوق ذلك ومعه، يجب النظر إلى هذه التوترات الدينية والطائفية في إطار الأسباب الحقيقية التي ولّدت وقائعها وأحداثها.

ولعل شهادة العلماء والباحثين غير المسلمين أن تكون خير شاهد من أهلها على حقيقة حجم هذه التوترات وأسبابها:

فالعالم الإنجليزي الحجة "سير توماس أرنولد" يشهد للحرية الدينية التي قرّرها الإسلام وحضارته، والتي وسعت التنوع والاختلاف، وأتاحت إنقاذ النصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية البيزنطية، حتى ليمكن القول: إن بقاء النصرانية الشرقية هو "هبة الإسلام".[٧]

والعالم الألماني الحجة "آدم متز" يتحدث عن دور غير المسلمين في إدارة دواوين الدولة الإسلامية عبر التاريخ الإسلامي، فيقول: "لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام".[٨]

أما الباحث والمؤرخ المسيحي اللبناني "جورج قرم"، فإنه يرجع التوترات الدينية والطائفية -العابرة والمحدودة- التي شهدها التاريخ الإسلامي إلى عوامل ثلاثة، هي: ١-المزاج الشاذ لبعض الحكام الشواذ الذين حكموا بعض البلاد الإسلامية لبعض الوقت

[٧] الدعوة إلى الإسلام، سير توماس أرنولد، القاهرة ١٩٧٠، ص ٧٢٩-٧٣٠.

[٨] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، بيروت ١٩٦٧م، ١/١٠٥.

والذين اضطهدوا الأقليات كجزء من اضطهادهم العام للرعية كلها. ٢-صلف الوزراء والجباة والقادة غير المسلمين، واستعلاؤهم على جمهور المسلمين، وثراؤهم المستفز، وظلمهم واضطهادهم لعامة الفقراء المسلمين؛ الأمر الذي ولّد ردود أفعال طائفية لم تقف عند الذين ظُلموا من أبناء هذه الأقليات خاصة، وإنما عمت البلوى جماهير الأقليات. ٣-غواية الاستعمار الأجنبي-الصليبي والإنجليزي والفرنسي- لقطاعات من أبناء الأقليات، كي تمالئ الغزاة، وتخون أمتها ووطنها، ونجاح هذه الغوايات الاستعمارية في كثير من الأحيان، الأمر الذي ولّد ردود أفعال عنيفة ضد أبناء هذه الأقليات التي وقعت في شباك الغوايات.[٩]

هذا هو حجم التوترات الدينية في التاريخ الإسلامي.. وتلك هي أسباب هذه التوترات، كما شهد بها المنصفون من العلماء والباحثين غير المسلمين.[١٠]

العلاقة مع الآخر الثقافي

في الموقف من الثقافات التي تنتشر على النطاق العالمي، وفي إطار الحضارات غير الإسلامية، هناك مواقف ثلاثة، لكل واحد منها أنصار ومحبذون:

وأول هذه المواقف هو موقف المثقف "خالي الشغل"، ذلك الذي يمثل عقله صفحة بيضاء خالية من الموقف والخصوصية

[٩] تعدد الأديان وأنظمة الحكم، جورج قرم، بيروت ١٩٧٩م، ص ٢١١-٢٢٤.

[١٠] انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي (٧٦٦-٨٤٥هـ)؛ عجائب الآثار، للجبرتي (١١٦٧-١٢٣٧هـ).

والذاتية الحضارية، وتنطبع عليها كل ألوان الوافد والمستورد، حتى لكأن عقله هذا مكتب من مكاتب الاستيراد، التي تعيش بها وعليها طبقة "الكومبرادور" الطفَيلية، التي لا علاقة لها بالإنتاج الوطني والقومي، ولا علاقة لعقولها بالإبداع الفكري والثقافي والحضاري.

وثاني هذه المواقف هو موقف الانغلاق دون الثقافات العالمية جميعها، وتحريم الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى في الحفاظ على لغاتها وآدابها وفنونها وثقافاتها، وفي التطوير لهذه الثقافات، والتجريم لكل ألوان الانفتاح على هذه الثقافات.

وأصحاب هذا الموقف يحلمون بـ"المستحيل - الضار".. فما يريدونه مستحيل التحقيق، لأن بناء أسوار صينية بين الثقافات العالمية لم يتحقق قديمًا، فما بالنا به في عصر ثورة وسائل الاتصال؟!

وهذا المستحيل ضار -على فرض إمكان تحققه- لأن الانغلاق الثقافي يؤدي بأصحابه إلى مثل ما يؤدي إليه الإضراب عن الطعام والشراب بجسم الإنسان، حيث يتغذى الجسم على ذاته، فيستهلك هذه الذات، ويصاب بالذبول والضمور والاضمحلال.

وإذا كانت التبعية الثقافية تؤدّي بأصحابها إلى التقليد الذي يذيب التميز، فتضمحل به الذاتية والخصوصية، فإن الانغلاق يقود -هو الآخر- إلى ذات النتيجة البائسة والمأساوية.. فكلا التفريط والإفراط يفضيان إلى مأساة الذبول والاضمحلال للشخصية الوطنية والقومية في الثقافة والحضارة.

موقف التفاعل المتوازن

أما الموقف الثالث من الثقافات العالمية، فهو الوسط العدل الذي يختار طريق "التفاعل" مع الحضارات والثقافات العالمية، من موقع الراشد المستقل، دونما إفراط في الخصوصية يؤدي إلى "الانغلاق" أو تفريط يؤدي إلى "التبعية" والتقليد والذوبان.

وهذا التفاعل مع الثقافات العالمية هو الذي يميّز بين خصوصيتنا الثقافية المتمثلة في منظومة القيم الإسلامية، التي هي معايير القبول والرفض لما لدى الآخرين، وبين ما هو مشترك إنساني عام، سواء أكان هذا المشترك علومًا طبيعية ودقيقة ومحايدة، أو تطبيقات لهذه العلوم في التقنيات التي يتم بها عمران الواقع المادي في المجتمعات الإسلامية، أو كان هذا المشترك الإنساني العام خبرات وتحارب إنسانية في ميادين ترقية الثقافة واللغة وتطعيم ثقافتنا وإثرائها بالقوالب المستحدثة والنافعة في الفضاءات الثقافية الأخرى.

فهذا الموقف الثالث -موقف التفاعل الخلاق بين الثقافات والحضارات- هو النافع... وهو الوسط العدل بين غلوّ الإفراط والتفريط في الانغلاق والعزلة وفي التبعية والتقليد.

بل إن هذا الموقف الثالث (الوسطي والمتوازن والعادل) يكاد يكون هو القانون العادل الذي حكم العلاقات الصحية والناضجة بين الثقافات والحضارات على مر التاريخ.

فالمسلمون عندما انفتحوا على ثقافة مدرسة الإسكندرية في القرن الهجري الأول، ترجموا علوم الصنعة (تقنيات العلوم الطبيعية

والدقيقة والمحايدة) ولم يترجموا ديانات مصر (الوثنية أو النصرانية) ولا الفلسفات الهلينية والغنوصية. وكذلك صنع المسلمون عندما انفتحوا على التراث الروماني، منذ عصر الراشد الثاني عمر بن الخطاب ﷺ، فلقد أخذوا نظم الدواوين، دون أن يأخذوا القانون الروماني. وكذلك كان الحال في التفاعل الإسلامي مع الحضارة الفارسية؛ فلقد أخذ المسلمون تجارب الفرس في التراتيب الإدارية، دون أن يأخذوا فلسفات المجوسية وعقائدها الدينية. وبنفس المعايير كان الانفتاح والتفاعل الإسلامي مع المواريث الهندية؛ إذ أخذ المسلمون فلك الهند وحسابها، دون أن يأخذوا فلسفتها وديانتها. ولقد حكمت ذات المعايير الانفتاح الكبير للحضارة الإسلامية على التراث الإغريقي؛ فأخذوا من الإغريق العلوم الطبيعية والتجريبية، دون أن يأخذوا وثنية الإغريق. وبنفس المعايير كان انفتاح الحضارة الأوروبية -إبان نهضتها- على الحضارة الإسلامية، عندما أخذت العلوم التجريبية والمنهج التجريبي، والخبرات الإسلامية، دون منظومة القيم الإسلامية، والعقائد الإسلامية، وفلسفة العلم عند المسلمين.

إن الخصوصية الثقافية هي الضرورة المحركة للعقل المسلم كي يبدع ويجدد؛ بينما الانغلاق والتبعية والتقليد تفضي إلى الذبول والذوبان والاضمحلال.

لقد تميزت فلسفة الإسلام في النظر إلى الشرائع والملل والنحل الدينية غير الإسلامية، وفي العلاقة بالمتدينين بتلك الشرائع

والملل والنحل بالموقف الوسطي الذي قرر أن دين الله واحد، من آدم إلى محمد ﷺ. إن الشرائع السماوية متعددة بتعدد أمم النبوات والرسالات في إطار وحدة عقائد هذا الدين الإلهي الواحد. فتحققت بهذه الفلسفة الوحدةُ الدينيةُ مع التمايز في الشرائع الدينية أيضًا.

وبهذه الفلسفة الإسلامية في النظرة للآخر الديني حقق الإسلام "ثورة إصلاحية.. وإصلاحًا ثوريًّا" تجاوز الاعتراف بالآخر والقبول به والتمكين له، إلى حيث جعل هذا "الآخر في الشريعة" جزءً من "الذات الدينية الواحدة"، وذلك لأول مرة في تاريخ العلاقات بين أبناء الديانات والحضارات.

ووحده الإسلامُ هو الذي بدأت به مسيرة جعل الآخر جزءً من الذات الدينية؛ فقرر للآخَرين ذات الحقوق وذات الواجبات في الدولة والأمة: "لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم..".

بل لقد جعل الإسلام من الآخر الديني جزءً من أولي الأرحام عندما أقام الأسرة -وليس فقط الأمة- على التنوع الديني. فأصبحت الزوجة الكتابية سكَنا يسكن إليها المسلم، وموضع محبته ومودته، بينهما ميثاق الفطرة.. حتى لكأنهما ذات واحدة يجمعها لباس واحد: ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**﴾ (البقرة:١٨٧).[١١]

ولأن فلسفة الإسلام وهي تتطلع إلى المثالي، لا تغفل عن مكنونات "الواقع" تميزت بالعدل الذي لا يضع كل أهل الكتاب في

[١١] وانظر: ﴿**وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا**﴾(النساء:٢١).

سلّة واحدة وصنف واحد، بينما ميّزت بين فرقائهم بحسب موقف كل فريق من "الكلمة السواء"، التي هي التمايز في الشرائع بإطار وحدة الدين: "الأنبياء أبناء علاّت، دينهم واحد، وأمهاتهم شتّى" (متفق عليه). ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤).

فأهل الكتاب ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۞ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١١٣-١١٥).

وليس من العدل أبدًا التسوية بين هؤلاء الذين تفيض أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق، وبين الذين دخلوا في لون من الشرك والكفر: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾(المائدة:٧٢)، لكن الإسلام مع هذا التمييز بين فرقاء أهل الكتاب، والعدل في التمييز بين مواقفهم من "الكلمة السواء"، قد جعل حساب كل ذلك إلى الله وحده يوم الدين. أما في الدنيا والدولة والتكريم الإلهي لمطلق بني آدم، فقد قرر الإسلام لكل هؤلاء الفرقاء ذات الحقوق وذات الواجبات التي قررها للمسلمين المؤمنين بكل الكتب وكل

النبوات والرسالات.. وبنص عبارة رسول الله ﷺ في عهده لنصارى نجران وكل من ينتحل دعوة النصرانية: "فإن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم".

تلك هي مرتكزات التعايش مع الأديان الأخرى، في القرآن الكريم، وفي التطبيق النبوي لهذا القرآن الكريم.

التديّن والتحضر نحو تواصل إيجابي[1]

أ.د. عبد الرازق وورقية[*]

إن نزول الإنسان على هذه الأرض لم يكن عبثا، وإنما كان لمقصد أسمى وهو عبادة الله ﷻ. ومفهوم "العبادة" لم يكن في أصله ضيقا كما يعتقد بعض الناس، وإنما يشمل جميع حركات المكلفين وسكناتهم بحيث تصبح داخلة في قانون الامتثال لله تعالى، ومن ذلك تعتبر عمارة الأرض من صلب الأعمال التعبدية. لذلك فالتكريم للإنسان بجميع أنواعه كان -أصلا- من أجل تحقيق هذه الغاية، إلا أنه مع مرور القرون المتطاولة نسي الإنسان المقصد من خلقه، وغابت عنه الحكمة من وجوده، فكانت ذلك مجالا مناسبا لبعثة الأنبياء، وتقييض الصالحين والحكماء من أجل تنبيه الناس إلى المقصد من خلقهم. وفي العصر الحديث لما تطورت الحضارة الإنسانية ماديا، وبلغت شأوا عظيما اختلف الناس في النظر إليها، حيث ظهر فريقان على طرفي نقيض أحدهما، وهو من ظاهرية الفهم للنصوص الدينية: ذهب إلى أن هذه الحضارة وما يتعلق بها من تحديث وتطوّر مُعارض للدين ومناف لقيمه، والفريق الثاني، هم

[1] نشر هذا المقال في العدد ١٢ من مجلة حراء سنة ٢٠٠٨.

[*] كاتب وأكاديمي مغربي

بعض أدعياء الحداثة: ذهبوا إلى أن التدين وصف معرقل للحضارة، وبرروا نظرتهم للموضوع بتصرفاتِ طائفة محسوبة على الدين، من الذين أساؤوا فهم الدين ومقاصده، فنشأت عن ذلك معارك فكرية بين فريقين عظيمين في الأمة على مدى قرنين من الزمان تقريبا منذ ظهور النهضة الحضارية الأوروبية الأولى. وآناء هذا الجدال الفكري تم تداول مصطلحات يصدم بعضها البعض كالتحضر والتدين، والحداثة والرجعية، والتفتح والتزمت... إلخ، واستمرت النقاشات السفسطائية دون جدوى، وضيعت أزمانا وجهودا وأقلاما من غير طائل بسبب إشكال مفتعل، أو بسبب عدم تحرير محل النزاع. ولو أن الفريقين احتكموا إلى الفهم الصحيح للدين والتاريخ والواقع والعقل لما اضطروا إلى هذه المنازلة الفارغة، ولكسبوا شروط التقدم، ولارتقت الأمة مرتقى عظيما، ولكن هؤلاء وهؤلاء احتكموا إلى مجرد التعصب والأغراض وقبلوا بجدوى النزاع، فلم يفتروا عن إحياء إشكاله كلما سعت الأمة للنهوض والتقدم، معرقلين سيرها بقوة أكثر من حجم المشكل أصلا الذي وقع بشأنه الخلاف.

وفي هذه السطور التي نتشرف بكتابتها في مجلة "حراء" الغراء يليق بنا إثارة الموضوع لا لنعيد إحياء المعارك القديمة، وإنما لفتح الآفاق أمام نظرة مستقبلية جديدة تدفع بمسيرة الأمة الحضارية إلى الأمام دون تعثر، ساعية نحو الشهود، غير ملتفتة لسفاسف الخواطر، ولا لعوادي الدهر، ملتمسة الطريق الوسط للنظر إلى أمور الدين والدنيا. من هذا المنطلق نحاول تحرير محل النزاع، بتفسير مصطلحاتِ؛ التحضر والحضارة، والدين والتدين، متتبعين في ذلك

منشأ خصائص التقدم وعلاقتها بالدين، وكاشفين النقاب عن الوهم الواقع في المسألة، وعن الفرق بين التحضر وأدعيائه وبين الدين وسوء فهم الدين، مستندين إلى التاريخ وأهله، والواقع ومقتضياته، ونصوص الوحي ومقاصدها، موجهين كل هذه الفروق والتدقيقات نحو تطوير نظرة إيجابية للموضوع وبالله التوفيق.

مفهوم التدين

يطلق الدين في كتب اللغة عموما على ما يلي: العادة، والعبادة، الطاعة، الجزاء، القضاء، المجازاة، الحساب، الحكم، الإكراه، الإحسان، الحال، الداء، السيرة، الورع، الاستيلاء، السلطان، الملك، الذل، العز، الخضوع، الإسلام، التوحيد، كل ما يتعبد به.. إلخ. وتتوزع هذه المعاني اللغوية على حسب ما تضاف إليه لفظة الدين، فبالنسبة لله عز وجل تعني القهر والسلطان والعظمة والعزة وكل ما يدور في فلك هذه المعاني من التعظيم، ويكون الدين بالنسبة للفرد المتدين الخضوع والانقياد لمن دان له، ويكون المعنى بالنسبة لقولنا "دان بكذا": الشريعة والقانون الذي التزم به المتدين والتزم بالسير على قواعده وهو المتعبد به.

وفي الاصطلاح عرَّف علماء المسلمين الدين بتعريفات كثيرة أشهرها وأجمعها هو أن الدين "وضع إلهي يسوق ذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات"، وهو ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم. فإن الوضع الإلهي -هنا- هو الأحكام التي جاء بها نبي من الأنبياء عليهم السلام. والتدين -بناء على هذا التعريف- هو

التزام هذه الأحكام والسعي لتحقيق مقاصدها في الأرض. وسلامة التدين تتركب من أمرين أحدهما: الفهم الصحيح لهذه الأحكام، وثانيهما: الاتباع السليم لهذه الأحكام الإلهية وبتجرد كامل من الأهواء الذاتية.

فطرية التدين

الفِطرة بالكسر الخلقة أي الطبيعة التي صور عليها الله تعالى الخلق في الأصل قبل طروء التغيرات الواقعية عليه. فالإنسان قبل وقوع المؤثرات الخارجية عليه متدين بطبعه، حيث الدين كان ملازما له منذ القديم وإلى عصرنا الحالي. وبالرغم من ظهور بعض الثقافات اللادينية في العصر الحديث ما زال أربعة أخماس من سكان العالم متدينين بصورة عملية. ويدل على فطرية التدين أدلة نقلية وأخرى عقلية. فمن الأدلة النقلية:

قول الله ﷻ: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾(الروم:٣٠) بمعنى اتبعْ فطرة الله، أَي خِلقة الله التي خلق عليها البشر وهي الدين الصحيح. وقول النبي ﷺ: "**كلُّ مولودٍ يولَد على الفطرة**"، معناه أن الله فطر الخلق على الإيمان به والفطرةُ منه الحالة، كالجِلسة والرِّكبة، والمعنى أنه يولد على نوع من الجبلّة والطبع المتهيّئ لقبول الدّين، فلو تُرك عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها، وإنما يَعْدل عنه من يَعْدل لآفة من آفات البشر والتقليد. وقيل: معناه كلُّ مولودٍ يولد على معرفة الله تعالى،

والإقرار به، فلا تجد أحدا إلا وهو يُقِرّ بأن له صانعا، وإن سمّاه بغير اسمه، ولو عبَد معه غيره.

والحديث الذي أخرجه الإمام أحمد عن أبي بن كعب في قول الله ﷻ: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ**﴾(الأعراف:١٧٢)، قال: جمعهم فجعلهم أرواحا، ثم صورهم فاستنطقهم فتكلموا، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق ﴿**وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِم أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**﴾، قال: فإني أُشهد عليكم السمواتِ السبعَ والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم عليه السلام أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيري، ولا رب غيري، فلا تشركوا بي شيئا، إني سأرسل إليكم رسلي يذكّرونكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتبي، قالوا: شهدنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك، فأقروا بذلك".

أما الأدلة العقلية فتتلخص في أمرين أحدهما: قدم التدين في أغلب الحضارات الإنسانية، والثاني: استمرار التدين في أغلب البشر وملازمته للتفكير والسلوك البشريين.

وإذا ثبتت فطرية التدين فإنه من المستحيل إقناع البشر بالفراغ الروحي والعبث واللامعنى، لذلك باءت جميع محاولات اللادينيين بالفشل عند عزمهم هدم عقائد الأديان لكون هذه الأخيرة تدعمها الفطرة الإنسانية، وما يدعون إليه تمجه الطبيعة البشرية. من هنا وكما سوف نرى لن تستغني الحضارة الإنسانية عن دعم الفطرة الدينية لتوجهاتها.

مفهوم التحضر وعناصره

بالرغم من التطور الحضاري الذي شهده الإنسان بقي مفهوم الحضارة من المفاهيم التي يتعسر التدقيق في معناها: وقد حاول الكثير من علماء الحضارة البحث في محددات موضوعية للتحضر والتي تسمح بإطلاق لفظ الحضارة على سلوك مجتمع ما، وفي بحثهم هذا توصلوا إلى عدة أنواع من العناصر التي بتوفرها يمكن الحديث عن الحضارة.

١ – التعقد والتمدن: بالنسبة لمعيار التعقد يمكن القول إن المجتمع المتحضر هو المجتمع الذي بلغ درجة من التعقيد والاختلاف بين أجزائه وأعضائه بناء على مهام وأنشطة، مما يجعل حجم هذا المجتمع يتجاوز الخلية الاجتماعية البسيطة مثل العشيرة أو القبيلة.

وبالنسبة للتمدن أو التعمير، فإن التمدن (أي تشكل المدن وتكاثر البنيان والتعمير) معيار محدد للحضارة وهو من منازعها كما عند ابن خلدون. وعند الأركيولوجي البريطاني "جوردون تشيلد". التمدن ليس هو منطلق الحضارات فحسب، وإنما هو الرمز والنتيجة. فبناء على هذا المعيار نميز بين حضارة ما قبل التمدن، والتي لم تأخذ منحاها الحقيقي إلا بعد ظهور المدن، إذ الحضارة بحسب هذا المنظور وإن ظهرت قديما فلم تتضح معالمها إلا مع ظهور الأشكال الأولى من مدن ما بين النهرين "ميزوبوتامي"، ثم تتابع التمدن في العصر البرونزي منطلقا من ثلاثة معاقل هي الميزوبوتامي، وهي ما بين نهري دجلة والفرات، وحوض النيل،

وحوض نهر الهندوس. وحسب جوردون تشيلد فمعيار التمدن يشمل المعايير الأخرى، إلا أنه يبقى أوضحها لأنه في المدن يمكن تجميع الجهود، وترسيخ البنيات الاجتماعية والأنشطة المتخصصة التي تتيح الفرصة للاختراعات والتطورات التقنية والفكرية.

٢- معيار التقنيات: حيث يعتبر التطور التقني معيارا محددا لمعنى الحضارة عند الكثير من المؤرخين، ولاسيما المتخصصين في التاريخ القديم، حيث اتخذوا هذا المعيار قاعدة لتصنيفاتهم، إذ اتضح لديهم أن الإنسان استعمل المعدات المخترعة وفق ترتيب معين من الحجر المنحوت إلى الحجر المصقول، وصولا إلى المعادن والفلزات، ومن جهة أخرى وبصورة ترتيبية كانت البداية بتربية المواشي ثم الفلاحة ثم استعمال الطاقة المائية الهيدروليكية، وصولا إلى الصناعة. إلا أن استعمال التقنيات لا يأخذ معناه الحضاري إلا إذا وضع في نظام اجتماعي يعكس توجهه الاقتصادي، فمن جهة تطور الفلاحة أنتج نظام الملكية الذي أدى بدوره إلى الصراع بين الطبقات حسب ماركس وأنجلز والتي تعد عندهم العنصر المحرك للحضارة والتاريخ.

٣- معيار العوامل الفكرية والمعرفية: والتطور التقني بدوره عموما هو نتيجة للتطور الفكري والمعرفي. ويعتبر ظهور المعارف والعلوم والفنون والكتابة، السمة الأساسية لأغلب الحضارات الكبرى المشهورة. ففي هذه الحضارات ظهرت علوم الهندسة والرياضيات والفلك وباقي الفنون. فمن هنا يتحدد معنى الحضارة بتوفر هذه الأنشطة الفكرية والمعرفية.

٤- المعيار الديني: وهو الأصل في هذه المعايير كلها، فالملاحظ أيضا أن أغلب الحضارات الكبرى ارتبطت بالدين، بل إن التمدن الذي هو أساس الحضارة قام حول المعبد كرمز مقدس يجتمع فيه الناس، ويستقرون وينشطون تجاريا حوله. ومن ثم ساد عند كثير من علماء الحضارات تصنيف الحضارات الإنسانية بناء على المعيار الديني، فيقولون حضارة مسيحية، حضارة إسلامية... حيث كان للدين الأثر الكبير في قيام حضارات كبرى في التاريخ واستمرارها على مدى آلاف السنين، لأن الدين يمتلك أهم مقوم لذلك، وهو القيم والمبادئ أو الفكرة الدينية على حد قول الحكيم مالك بن نبي.

ومجمل القول: إن مصطلح الحضارة يستعمل لأداء معنيين اثنين أحدهما: نظري يتوجه إلى القيم والمبادئ والمعتقدات والأفكار التي تحدد نمط تلك الحضارة، وتصبح هذه القيم ميزتها الأساسية، وهنا تلتقي الحضارة مع الثقافة كما ذهب إلى ذلك ثلة من أهل الاختصاص، وهنا أيضا يبرز أثر الدين في صنع الفكرة المؤسسة والمحرضة على البناء الحضاري. وثانيهما: معنى عملي، ويقصد به نمط الحياة التي يحياها الفرد والمجتمع، ولاسيما في بعدها المادي العمراني، وهنا تترادف الحضارة مع المدنية.

خصائص التحضر

إن التحضر بوصفه سلوكًا عامًا وشاملاً، وظاهرة تصنف بحسبها الأمم لابد وأن يتجلى في الواقع، متميزا بخصائص يختص بها. وعبر النظر في التاريخ ومسار الأمم في تطورها ورقيها يمكن استنتاج مجموعة من السمات البارزة للتحضر، منها:

الكسبية: إن التحضر أمر كسبي وليس شيئا جبليا، وإن كانت المهيئات للتحضر جبلية في الإنسان بمقتضى قوله تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾(البقرة:٣١) أي أصول العلوم كلها التي بنيت عليها الحضارة وشيد على أساسها العمران.

الاشتراك بين الأمم: بمعنى أن الحضارة الإنسانية هي نتاج جهود وإسهامات جميع الأمم. فكل أمة أدلت بدلوها في تشييد صرحها من خلال علم من العلوم أو فن من الفنون أو اختراع أو اكتشاف، ولم تقم الحضارة البشرية من فراغ، وإنما هي نتيجة تراكم قرون من الناس من مختلف الأجناس ومن مختلف بقاع الأرض. وإلى هذه القاعدة ذهب أغلب علماء الحضارة، حتى قالت المستشرقة الألمانية المنصفة زيغريد هونكه: "بساط الحضارة بساط نسجته وتنسجه أيد كثيرة، وكلها تهبه طاقتها وكلها تستحق الثناء والتقدير"، وقال أحد الحكماء: "إن علم العالَم مبثوث في العالَم بين جميع من في العالَم". وعلى هذا لا تصح دعوى التفرد بالإنجاز الحضاري التي صدرت في بعض مراحل العصر الحديث من لدن بعض مؤرخي الفترة الاستعمارية، حيث بمقتضاه صنفت الأمم إلى مبدعة وأخرى مستهلكة متوحشة.

التداولية: فالتحضر دول بين المجتمعات البشرية، إذ ينتقل بين الأمم بحسب استعدادها، وقابليتها لمقوماته ومقتضياته. فأيما أمة نهضت ونفضت غبار التخلف عن طريقها استطاعت أن تكسب دورها وموقعها بين الأمم المتحضرة، إذ ليس التحضر والتخلف

أمرين جبريين دائمين، فكم من حضارة كانت شامخة وانهارت إلى الحضيض وكم من أمة متخلفة نهض أبناؤها وارتفعت إلى مصاف الرقي، والتطور. وهنا يسقط ادعاء أي مجموعة بشرية الانفراد بالتحضر، فقد تدور الدائرة وتضعف مقدرات أفرادها عن العطاء ويسلب منها ذلك التقدم إلى أجل غير مسمى.

التطبع: للتحضر أوصاف تتصف بها الأمة المتحضرة حتى تصطبغ بها، وتصبح بمثابة طبائع لصيقة بها تميز تقدمها على غيرها من الأمم المتخلفة. فالتحضر بما هو وضع إيجابي له طبائعه الإيجابية، كالعلم والنظام والحوار والعمران والنظافة والحفاظ على البيئة، وحسن استعمال الموارد الطبيعية والأمن والعدل والسلام. وقد تمر القرون المتطاولة وتعرف تلك الأمة بتلك المكارم. وفي مقابل التحضر يأتي النقيض له "التخلف"، الذي هو وضع سلبي له خصائصه السلبية، حيث يعرف بعلامات التقهقر والانهيار وفقدان القيم والجهل والفوضى والتظالم والتهالك والعنف والتدمير والقذارة... وقد تمر أزمان طويلة ولا تنفك أمة عن هذه العلامات حتى تعرف بها.

التحضر والتدين: تقارب المقاصد وتكامل الوسائل

فبعد تعريف الدين وبيان فطريته، وتحديد مفهوم التحضر وجرد خصائصه، يسوغ الحديث عن إمكانية التواصل بين الطرفين. وذلك يستقيم أمره على مستوى المقاصد والوسائل المؤدية إليها، ولاسيما إذا علمنا أن لكل من الدين والحضارة مقاصد يتوق لتحقيقها حكماء

البشر. وعند إجالة النظر في منطلق الدين وفي مساعي الحضارة البشرية، نجد أن هناك تقاربا بين ما جاء به الأنبياء كمقاصد لشرائعهم الموحى بها، وبين ما انتهت إليه العقول الراجحة من أصحاب الحكمة والمعرفة. فالشرائع من جهة لا تناقض قضايا العقول، والعقول السليمة لا ترفض الشرائع، فيوشك أن تتحد المقاصد العمرانية وتتكامل الوسائل والطرائق لتحقيقها.

فمن جهة تقارب المقاصد بين التدين والتحضر يتجلى الأمر عند الكشف عن مقاصد كل واحد من الطرفين على حدة. فبالنسبة للدين الصحيح بوصفه أحكاما وشرائع تنظم حياة البشر في هذا الكون لم يأت إلا لمصلحة البشر، حيث نصت الشرائع السماوية على أن المقصود من أحكامها صلاح الخلق وعمارة الأرض ومحاربة الفساد والضرر. وهذه الغايات هي ما عبر عنها علماء الأصول بمقاصد الشريعة من الخلق، يقول الإمام الغزالي: "نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم. فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة".

وهذه المقاصد الدينية من الاجتماع الإنساني كما هو واضح تؤول إلى حفظ خمس ضروريات "الدين والنفس والعقل والنسل والمال"، بها تتحقق السعادة البشرية الدنيوية والأخروية. يقول الإمام الشاطبي: "فأما الضرورية فمعناها أنها لابد منها في قيام مصالح

الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين".

أما بالنسبة لمقاصد البشرية من التحضر فقد ذهب الجمهور من عقلاء البشر، من فلاسفة وحكماء ورجال العلم المنظرين للاجتماع البشري، إلى أن المقصود الذي يطمح إليه الإنسان في اجتماعه ومدنيته يحوم دائما حول تحقيق السعادة البشرية، باستيفاء الرغبات والحاجات المعقولة والممكنة للبشر. وهذا مذهب أغلب محبي الحكمة بدءا من أوائل الحكماء والفلاسفة كأفلاطون في جمهوريته، والفارابي في مدينته الفاضلة، وابن سينا في سياسته المدنية... انتهاء بالعصر الحديث حيث نادى جمع غفير من علماء ومفكرين بتوجيه الحضارة نحو تحقيق السعادة البشرية. واستمر الأمر على ذلك في عصرنا الحالي إذ لا يختلف أهل الفكر في ضرورة ترشيد التحضر والتقدم نحو إسعاد البشر. وكثير من هؤلاء حاولوا تحديد معايير محددة لهذه السعادة، وعموما تدور آراؤهم على تحقيق الأمن والسلام والكفاية وجميع مقومات استمرار الوجود الإنساني المادي والروحي... ويتحصل من هذا أن هناك اتفاقا بين الأنبياء والحكماء على السعي إلى تحقيق السعادة الإنسانية، فالأنبياء دعوا من خلال ما جاؤوا به من شرائع إلى إصلاح حال البشرية بالحفاظ على القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة، وعلى رأسها تلك الكليات الخمس الضرورية. والحكماء دعوا في نظرياتهم أيضا إلى مدن فاضلة يسودها الأمن والسلام والعدل.

ومن جهة تكامل الوسائل المؤدية إلى هذه المقاصد فيمكن القول إنه إذا تقرر اتحاد وتشابه الأهداف، فالوسائل قد تختلف بين الأديان السماوية نفسها وإن اتحدت عقائدها، كما تختلف بين الحكماء والمفكرين. وذلك أمر طبيعي لكون هذه الوسائل ما هي إلا إجراءات عملية تخضع إلى التقديرات الزمنية المشخصة حيث يختلف ذلك بحسب الظروف والأحوال. ولئن كان اختلافها بين الدين ورجال الحكمة ليس اختلاف تضاد وتناف، إنما هو اختلاف تكامل. فإنه مثلا إذا نص الدين على تحسين وسائل وتقبيح وسائل أخرى نجد في الغالب أن هناك تواطؤا بين أهل الفكر ومنظري الحضارات الإنسانية على ما يقارب نفس التصنيف. لذلك في الغالب لم تخرج مواثيق حقوق الإنسان والقوانين المدنية والجنائية عما تقرر من مبادئ في الدين كالإقرار مثلا بحرية الإنسان، وحقوقه المادية والمعنوية. وكذا وجوب الوفاء بالعقود وتحريم التظالم وقبح الجرائم، كالقتل والسرقة والاغتصاب والتعذيب إلى غير ذلك من أمور عليها قامت المدنية المعاصرة.

نحو تدين صحيح وتحضر إيجابي

يحاول طائفة من أهل الفهم التبسيطي للدين، البحث في نصوص الوحي للعثور على ما به يعارضون بعض مقتضيات الحضارة، بدعوى مخالفتها لما يرونه أحكاما دينية وخروجها عن الشريعة بالكلية، ممثلين ببعض الجزئيات التي لم يأخذوا بها ضمن إطارها المقاصدي التشريعي، كبعض ما ورد في النحت والتصاوير والزخرفة وبعض أنواع اللباس وبعض الآلات التكنولوجية وغير

ذلك مما لا يستقيم شاهدا على ما يقولون، بل قد يكون مرده إلى بعض الفهوم البدوية للدين التي قد تكون وليدة بيئة معينة بعيدة عن فهم الدين من جهة وعن إدراك عمق الحضارة من جهة أخرى.

وهذا الفهم الشاذ لهذه الطائفة قد يكون حجة عند أولئك المتطرفين في الجانب الآخر، الرافضين للتعامل مع الدين بشكل إيجابي؛ إلا أنه وفي ضوء ما سبق يمكن التعقيب على الطائفة الأولى باستقراء نصوص الوحي والنظر إليها في ضوء مقاصد الشريعة الكلية. فالذي يتتبع نصوص القرآن الكريم يعثر على كثير من الأوامر والمندوبات لأجل دعم مسيرة الإنسان نحو عمارة الأرض، وحسن استثمار مسخرات الكون، وحماية الأرض من الفساد بعد الإصلاح، والنهي عن الظلم والاعتداء إلى غير هذا من أمر بالفضائل ونهي عن الرذائل، حتى قال الإمام العز بن عبد السلام: "والشريعة كلها مصالح، إما تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح. فإذا سمعت الله يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ فتأمل وصيته بعد ندائه، فلا تجد إلا خيرا يحثك عليه أو شرا يزجرك عنه أو جمعا بين الحث والزجر".

ويمكن التعقيب على الطائفة الثانية بأن الدين لا يؤخذ من مجموعة بشرية قليلة تدعيه، وإنما يؤخذ من مصادره الأصلية، في ضوء قواعده الخاصة، كما لا يمكن التسليم بلزومية التقدم في حالة التخلي عن الدين، وإنما قد يحصل العكس. فكما أسلفنا فالدين يعد من أهم المعطيات والشروط المؤسسة لأولى الحضارات ولأكبرها أيضا، وما زال الدين معينا لا ينضب للقيم والمثل العليا لأغلبية سكان

العالم، حتى قال أحد علماء الحضارة المحدثين: "إن الدين يستجيب لحاجة عميقة في الإنسان، ولو شئنا أن نعبر عن هذا بمصطلحات الفلسفة الوجودية لقلنا: إنها الحاجة لقوة الوجود التي تهزم اللاوجود الذي نلقاه ونعانيه في تجارب الموت، والعذاب والإخفاق والظلم والإثم وفقدان المعنى. ولو شئنا أن نعبر بلغة بسيطة مألوفة لقلنا: إن الدين يستطيع أن يمدنا بالمعنى الأخير للحياة، بمصدر وجودنا وغايته، أي بالإجابة عن السؤالين الخالدين، من أين، وإلى أين؟ وهو يستطيع أن يضمن لنا قيما عالية ومعايير غير مشروطة، أي علة مسؤوليتنا والهدف منها. والأديان حريصة على سعادة الإنسان، وذلك بتقديم التوجه الديني الأساسي أي السند والعون والأمل، ومنحنا الكرامة الإنسانية والحرية الإنسانية، والحقوق الإنسانية، أي الأساس الذي يرتكز عليه العمق النهائي".

وإذا اتضحت استحالة الانفصال بين الدين و التحضر، فدعوتنا قائمة من جهة لأجل فهم الدين فهما صحيحا يتم به نفع البشرية لتحقيق مقتضى قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء:١٠٧)، حيث لم يقل "عنتا ولا مضرة للعالمين"، ومن جهة ثانية ينبغي توجيه الحضارة الإنسانية إلى الحفاظ على القيم النبيلة، والتعامل بإيجابية مع الأخلاق الفاضلة. فإنها سر استمرارها وتوازنها، وانعدامُها يؤدي إلى خرابها وخراب العمران بعبارة العلامة ابن خلدون: "أعظم الإنجازات الحضارية ذات منطلق ديني".

إن المعيار الديني في تشكيل المبادئ والقيم التي تبنى عليها حضارة ما، أمر مقرر بشواهد التاريخ والواقع، بل وحتى المنجزات

المادية للحضارة كانت عبر التاريخ تستلهم من الدين وتسترشد به في تشييد صروحها. فبالاستقراء عبر آثار الأمم ومتاحفها، نجد أعظم المباني هي للمساجد والكنائس (أي أماكن العبادة). وأنفس التحف الفنية هي ما تركه نبي أو رسول أو حكيم أو راهب (أي رجل دين)، أو فنان أنجزه لغرض ديني، وأكثر من هذا تعتبر المخطوطات الدينية المحفوظة في الخزانات العالمية أعظم إرث ثقافي وحضاري مخلد في التاريخ، حتى إنه ما عرفنا الكتابة واللغات إلا بالكتب المقدسة، بل وأعظم من ذلك هو أن الإشكاليات الوجودية ذات الأثر في تطوير علوم الفلك والهندسة والجغرافيا... انطلقت من الحلقات الدينية. ومن هناك يتبين أنه من الصعب قبول تنكر أدعياء الحداثة للإسهام الديني في بناء ما تتمتع به الإنسانية اليوم من مقومات الاجتماع البشري السعيد.

نحو توأمة التحضر والتدين

إذا تقرر أنْ ليس هناك تعارض بين التحضر والتدين في حقيقة الأمر، وإنما التعارض ناشئ عن الأفكار المسبقة لبعض الناس نتيجة سوء فهم للنص أو الواقع، فإننا وبناء على معطيات معرفية وتاريخية وحضارية يمكن الخلوص إلى وجود تلازم بين الدين والتحضر منذ القديم، ويعسر الفصل بينهما. وكل من سعى إلى فرض التعارض بينهما وقع في خلط عظيم، وورط مجتمعه في صراعات لا تنتهي، تنجم عنها جراحات لا تلتئم قد تسوق الأمة إلى مدارك التخلف.

ومن منظور مستقبلي: فبدل أن نسعى إلى إثبات الفروق والهوات بين الدين والحضارة، فإنه يليق بالأمة بجميع أفرادها الانخراط في

توأمة إيجابية بين التدين والتحضر من خلالها تصبح الحضارة خادمة للمقاصد النبيلة للدين، ويصبح التدين عملا إيجابيا ومغنيا لمسار تطور الحضارة. فكما لا يخفى أن التحضر دون مبادئ وأخلاق يوشك أن يؤدي إلى الخراب، وأن التدين دون عمارة الأرض تدين ناقص، مخل برسالة الإنسان فوق هذه الأرض، فحتى ولو كان الظرف شديدا كقيام الساعة أَمَر الدين بغرس الأشجار والحفاظ على العمران، مصداقا للحديث الشريف: "**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها**" (رواه الإمام أحمد).

فكل ما يريده الدين من الحضارة هو الحفاظ على القيم الإنسانية النبيلة المجملة في مقاصد الشريعة الضرورية. وكل ما تطلبه الحضارة من الدين هو أن يكون عنصرا إيجابيا، داعما لتطورها واستمرارها، وهذا حاصل بالنسبة للدين الإسلامي حيث النظر إلى الكون من منظور التسخير، وأكل الطيبات من الرزق، والتعاون على البر والتقوى. إذ رسخ الإسلام بذلك لجمالية رائعة تربط كتاب الله المسطور بكتابه المنشور، بعيدا عن غرائز الصراع والتفكك والعبث.

وختاما يجوز لنا القول إن الإسلام بوصفه، الدين السماوي، البالغَ إلينا كتابه بالمعجزة والتواتر، لم يكن أبدا في يوم من الأيام معرقلا للفعل الحضاري، بل بالعكس من ذلك كان مُنشئا لحضارة مستقلة بذاتها ابتدأت بالأمر بالتعلم "اقرأ"، واستمرت بأوامر الاعتبار في الكون والتفكر والتعلم والحجة والحكمة. وساهمت من جانبها في تطور الحضارة الإنسانية، وقد شهد بهذا العقلاء من

الناس شرقا وغربا ومن لدن جميع الأمم. لذلك لا يليق بالمسلمين اليوم الالتفات إلى دعاوى التعارض والتضاد المفتعلة بين الدين والرقي الإنساني الحضاري، فإن الانشغال بذلك ضرب من التفاهة والسفاهة الفارغة. وإذا تقرر هذا وبانت حجته، فإننا نسجل أن هناك وعيا متناميا لدى فئة عريضة من المسلمين، استطاعوا الجمع بين الأوامر الدينية والمتطلبات الحضارية فأصبح عندهم التحقق الكامل لمفهوم "التدين الحضاري"، حيث اجتمعت فيهم مقاصد الدين ومقتضيات الحضارة، فإن كانوا في الدين فهم الواقفون عند أمره من حيث الالتزام بالأوامر والاجتناب للنواهي. وإن كانوا في الحضارة فهم أهلها الأصلاء، من حيث الذكاء والخدمة والنظام والتمكن البارع من الأخذ بأسباب التحضر دون إخلال بالمقاصد الإنسانية النبيلة من تسامح وكرم ونظافة ورحمة. ذلك هو المنهج الوسط الذي يجمع محاسن الأشياء، وينمي الجوانب الإيجابية أينما كانت، ويتقي المفاسد في أي جهة كانت.

تلك أمة الوسط التي نص عليها القرآن جامعة بين الخيرية في المعاش والمعاد، تغرس الفسيلة والساعة قائمة، لا يثنيها عن البناء خطورة الموقف، ولا مشاكسة المشاكسين.

الحوار بين الحضارات مقاربة تصنيفية مقترحات منطلقية[1]

أ.د. أحمد عبادي[*]

تعيش البشرية فوق كوكب صغير يسمى الأرض، وهو على شساعته لا يعدو كونه نقطة زرقاء سابحة في الفضاء. وكوكبنا بحكم اكتشاف سكانه عددا من الإمكانات الهائلة التي تقرب المسافات وتطوي الزمان وتيسّر التأثير والتأثر قد أضحى أشبه بخلية النحل الهائجة المائجة، وأضحت عليه هذه المجموعة البشرية أشبه بالبويضة الملقّحة التي يمكن أن يتولّد عنها كائن إنساني سوي وخيّر، كما يمكن أن يتولد عنها مارد مدمر لذاته وللحياة من حوله.

وبناء على هذا الإدراك فإن الحوار اليوم قد تجاوز بمراحل كونه مجرّد اختيار إلى صيرانه ضرورة؛ ولاسيما أن البشرية اليوم قد أصبحت أفعل وأقدر في مجالات التدمير منها في كل العصور التي مضت. فنحن نمتلك من القنابل النووية والذَّرية والهيدروجينية وغيرها، ما نستطيع به تدمير الأرض آلاف المرات وليس مرة

[1] نشر هذا المقال في العدد ١٥ من مجلة حراء سنة ٢٠٠٩

[*] الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب

واحدة. ويكفي تسلل قناعة مظلمة لواذا إلى عمق الإنسان فتستقر فيه لكي يدمر هذا الكويكب الذي ليس لنا ملجأ سواه؛ فلا أرض -راهنا- سوى هذه الأرض يمكن أن تُقلّ النوع البشري.

وقد أثبتت تجربتنا التاريخية المشتركة أن الرشد الذي برهنا عليه مجتمعين لم يبلغ درجة الكفاية، حتى في إطار تديناتنا المتنوعة، فالقراءة للتاريخ تثبت أن تعاطينا مع الوحي وهداياته لم يكن فيه -في الأغلب- التوجّه لهذا الوحي لنستمد منه أجوبة عن سؤالاتنا، وإنما كان تعاملنا معه -على الأعمّ- تعاملا استعماليا من أجل أن ننصر به قضايا ضيقة، أو أن نقضي به أغراضا زائلة، وقد يقارف هذه القضايا وهذه الأغراض في كثير من الأحيان إضرار بالذات أو بالمحيط، أو بهما معا.

وقد كانت الفترات -على قلّتها- التي سلَّم فيها الإنسان فعلا للوحي ولهدايته وأنواره بتوجه وفهم سليمين عبر التاريخ البشري أكثرَ الفترات سلاما وعطاء ورشادا وتعاونا على البر والتقوى.

إننا في هذه المرحلة أحوج ما نكون إلى فتح الأبواب على الواقع كما هو، لنتمكّن من إدراكه على ما هو عليه، لنكون أقدر على تصييره ذلك الواقعَ الذي نحلم به، فكلنا نحلم بالتسامح وبالجمال وبأن تكون البشرية متعاونة على البر والتقوى فوق هذا الكوكب، ولكن الواقع يُثبت أن ثمة سوابق معرفية وبرديغمات تؤطر الأذهان، ومن خلال هذا التأطير تُوجِّه الواقعَ وسلوكَ الإنسان. وبالتالي فإنه لا بد من فتح هذه المنطقة ودخولها لاستكشافها وتنقيتها وإعادة ترتيبها؛

وهي خمسة أمور لا يمكن تصوّر تحققها بدون اعتماد مستلزماتها ومقتضياتها، وفي طليعتها الأساس المعرفي البحثي العلمي.

ففتح رمّانة المعتقدات والتصورات والسوابق المعرفية والبرديغمات والقيم والمعايير، وإحصاءُ حبّاتها عددا، وقياس تأثيراتها، وتتبع تجلياتها في حياة الناس أفرادا وجماعات، أمر لا يمكن بدون ركوب مَركب المعارف المساعِدة، والتشميرِ للقيام بالبحث العلمي اللازم بالمناهج الملائمة، مراعاة للسياقات التاريخية والحضارية والثقافية المتنوعة. كما لا يمكن تصور دخول هذه المجالات المركّبة دون الاستثمار الزمني والنفسي والذهني والمادّي الملائم، إذ هو دخول لا يمكن أن يتم دون التعاطي الميداني التفاعلي المباشر مع أهلِ ومكونات الحضارات المختلفة.

أما الاستكشاف، فلا يمكن تصوّر وقوعه بدون ما يلزم من آليات منهاجية ولغوية للتعايش مدخل الاستكشاف، وكذا يلزم من مهارات ومقتضيات مادّية لدراسة العلوم والآداب والفنون والصنائع والشرائع والنظم، والتي هي جميعا مُتجلّى المعتقدات والتصورات والسوابق المعرفية والبرديغمات المؤطرة والقيم والمعايير، مع ضرورة مواكبة ذلك كله بالانتباه المتوفّز للفروق بين مختلف الحقول العلمية والعملية، والتفاوتات التاريخية، ومع الملاحظة الدقيقة والجمع المستوفي للمعطيات مع دراستها وتحليلها بالمناهج الملائمة، وهي مناهج يضطر المستكشف في كثير من الأحيان أن يبنيها بناء.

كما لا يمكن تصور القيام بتنقيةٍ، دون امتلاك ناصية المعرفة الدقيقة بالأصول والمنطلقات، إذ لا تعدو التنقية في نهاية المطاف تصفية الأمور ممّا يشوبها عبر الزمن وردّها إلى أصول نشأتها الأولى دون تمحّل ولا تكلّف، كسحاً للألغام المفاهيمية، والإعاقات التصورية التي قد تتسرّب إلى هذه الأنساق خلال مساراتها التاريخية وتقلباتها الاجتماعية، فتحجمها وتلجمها أو تفتحها على سراديب الكلّيانية والعنف الحضاري والدمار المدني.

أما إعادة الترتيب، فلا يجوز أن تكون خارج الثوابت تنصيصا وتقصيدا في مراعاة تامة للواقع وتطلباته، واعتبارٍ لمختلف المآلات التي قد تنجم عن هذا الترتيب أو ذاك.

أنواع المحافل الحوارية

غير أننا حين ننظر إلى المحافل الحوارية في عالمنا اليوم فإننا لا نجدها تتجاوز خمسة أنواع رئيسة من المحافل؛ معظمها في منآة عن هذا الكدح الخماسي المشار إليه آنفا:

المحافل التوظيفية

في هذا النوع من المحافل يتم توظيف الحوار من أجل الإبقاء على أمور معينة، أو من أجل الوصول إلى أغراض محددة.. كما يغلب على المقولات والأفكار التي تروَّج في هذه المحافل كونُها صدى لما يحمله المنظِّمون من قناعات؛ إذ يتم البحث في دائرة "الآخر" عمن سوف يتكلم بما في أذهان المنظمين وعما يشتهون، وليس عمن يحمل أفكارا وقناعات "أخرى"!

وهـذا المنحـى التوظيفـي تنـدرج ضمنه جـلُّ الدراسـات التي تم القيـام بهـا خدمةً للمنظور الاسـتعماري، أو خدمـةً لأغراض ومنافـع تجاريـة واقتصاديـة صرفة. وهو ما قامت به الدول عبر التاريخ مرورا بالفراعنة ووصولا إلى يومنا هذا؛ حيث تدرس المعتقدات والقناعات ضمـن هـذه المقاربـة التوظيفيـة بغرض التسـلل إلى المعمـار الذهني للآخـر بغيـة تأطيـره والتحكم فيه.. ومن هنا فـإن المحافل التي تنحو هذا المنحى توظيفية بامتياز.

المحافل الدعوية التبشيرية

وهنـاك منحـى ثـان، يمكـن أن نصطلـح علـى تسـميته بـ"المنحى الدعـوي أو التبشـيري". وهـو منحـى لا تكاد تبرأ منه ملـة من الملل؛ ويمكن أن نجده في المسـيحية كما يمكن أن نجده في الإسـلام، أو في الهندوسية أو البوذية أو في كل الديانات ذات النـزوع التبشيري، ومـن ثـم فـإن الحـوار في هـذه المحافل لا يكـون تعارفيا استكشـافيا بقدر ما يكون مستهدِفا ضم الآخر بل أحيانا هضمه.

المحافل الأكاديمية

الضـرب الثالـث مـن المحافـل يمكـن أن نصطلـح علـى تسـميته بـ "الأكاديمـي"، حيـث يُعنَـى فيـه الباحـث بمعرفـة الأمـور والوقائـع والمعطيـات كمـا هي، يكشـف عنهـا ويتركها بحياد متاحـة للتوظيف مـن طـرف أي من المحافل الأخرى. وهو محفل له إيجابياته ويحتل المنزلة بين المنزلتين: التوظيفية والتعارفية.

المحافل التوليفية المستهدِفة لتحقيق التعايش

هـذا النمـط الرابـع من المحافل الحوارية يسـعى إلى البحث عن نقـاط الالتقـاء والقواعـد المشـتركة مـع "الآخر" مـن أجل وضـع حد للصراعات العدمية؛ فهو بهذا يمارس التوظيف، لكن بطريقة إيجابية تروم حقن الدماء، وصيانة الأرواح، واستبقاء المصالح وعيا بضرورة الإبقاء على التوازنات بشـكل أو بآخر دون الغوص في معرفة الآخر ومحاولـةِ فهمـه فهما عميقا صادقا وصحيحا وإفادته والاسـتفادة مما عنده.

المحافل المعرفية التعارفية

وهي أكثر هذه المحافل ندرة، إنها المحافل التي تريد أن تستفيد من الحكمة أينما كانت؛ إذ الحكمة ضالة الباحث المحاور فأينما وجدها فهـو أحـق النـاس بها. ونحـن لا نتحدث هنا عن النـص أوعن العلاقة الإيمانية به ولا عن تصديقه أو هيمنته، وإنما نتحدث عن الحكمة التي تبلورت من خلال التعامل مـع النصوص في كل الديانات.

والحاصـل أن المـرء يمكـن أن يتعلـم الكثيـر ضمـن هـذه الخانة كما يمكن أن يتعلم منه الناس. وثمة حاجة ماسـة للعمل ضمن هذه المحافـل حتـى يُرَقّـى فيهـا الحـوار نحـو أن يصبـح تعارفيا؛ يتأسـس على البراديغمات التي تشـجـع على العبور نحو الآخر والإفادة منه، مثـل براديغـم وحـدة البشـرية أو الأسـرة الآدميـة الممتـدة، وبرديغـم مؤقتية الوجود الإنسـاني ومؤقتية الكون كله، وبرديغم نسـبية الإنسان ونسـبية معارفه وبرديغم التكامل وغيرها من البرديغمات المؤسسـة.

وهـذا النمـوذج المعرفـي التعارفي نموذج مسـتوعِب متجـاوِز مقارنة مـع "نموذج التسـامح" السـائد. والـذي يعتريه قصور؛ لأن التسـامح (*Tolérance*) يفيد أنني أسـجل عليك أشـياء أتحفظ عليها ولا أقبلها فأتفضـل وأتغاضـى عنهـا مـن أجـل أن أصـل إلـى خانـة التوظيفية أو التبشيرية أو ربما التوليفية.. ومن ثم فإن التسامح يبقى محدودا ليس بإمكانـه تجـاوز هذا المسـتوى. أما النموذج التعارفـي فهو أكثر قابلية للتعاطي والإثراء الإيجابيين.

وهو نموذج نجد التعبير عنه والتوجيه إليه بصيـغ متعددة ومختلفة فـي جـل الديانـات، ومـن أجلـى التعبيـرات عنـه عندي، مـا نجده في القـرآن الكريـم ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُـمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات:١٣). وعنـد التأمـل فإننا نجد فـي كل الديانات تدريبات على التعارف تختلف في شموليتها واستيعابيتها على التعارف.

والنمـوذج التعارفـي ينطلـق مـن حقيقة أن كل طائفـة من بني آدم قد عاشـت في سـياقات مختلفة حَررت فيها كفاءات معينة وأطلقتها، بحيـث إن التحديـات التـي تفرضها هذه السـياقات تضغـط أزرارا في الكينونة الإنسانية، فتنشئ أضربا من المعرفة ومن الحكمة عادة ما لا تكون عامة، وبشـكل يجعل باقي بني آدم محتاجين للاسـتمداد منها. إن هـذا النمـوذج يعتـرف بـأن كل طائفـة من الآدميين قـد بلورت في مجالاتها حكمة خاصة واسـتثنائية يمكن -من خلال تشـغيل نموذج التعـارف- أن يتـم تقاسـمها مـع الآخرين وتعديتهـا إليهم، كما يمكن

من خلال هذا التشغيل ذاته أن يؤخذ عنهم ما بلوروه هم أيضا من الحكمة ومن المعارف.

وفي النموذج الإسلامي يوجد هذا بقوة وإشراق كبيرين في عبادة الحج، ففي قوله تعالى لنبيه إبراهيم ﴿**وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾(الحج:٢٧)، يعني يفدون لكي يتجمعوا حول نقطة معينة هي الكعبة. وهذه الكعبة سميت كذلك لأنها مكعبة، لا أقل ولا أكثر، وحين تصل إلى هذه النقطة تجد أن الصف ليس صفا مستقيما وإنما هو دائري، وهذه الدوائر يصطف وفقها المسلمون وينظرون من مواقعهم فيها إلى الكعبة التي لا تعدو كونها سهما مؤشرا على جلال الله وقدرته، وحضوره وعنايته.

والزاوية التي تراها أنت من الكعبة؛ حجرا أسود كانت أم ركنا يمانيا، أم ركنا شاميا... لا يستطيع غيرك رؤيتها؛ لأنك تنظر من نقطة لو تزحزحتَ عنها بقدر أنملة فسوف تتغير الرؤية والبانوراما كلها، ولذلك فأنت مدعو ضمن هذه الشعيرة / الركن، التي هي الحج، إلى أن تطوف، وأن تنظر إلى الزوايا الأخرى من النقط والمواقع التي يقف عندها الآخرون... وطوافك لن يكون في نقطة رؤية واحدة، بل سوف تجتمع في أشواطك السبعة كثير من النقط التي تكون ضمن المطاف. غير أن هذا يستدعي النباهة؛ إذ لا تعارف دون انتباه لما تراه، وبعد ذلك يتم الصعود إلى عرفة. ولم يُسمَّ ذلكم الموقف عرفة من عبث، وإنما لوجود التعارف فيه. وشعيرة عرفة لا يحل إبانُها إلا

وقد تشابهت الأشكال والملامح وتمازجت الروائح؛ إذ لا حق لك بعد يوم التروية في استعمال الطيب، ولا حق لك في الحلق، كما أنك تجتنب لبس أمور الزينة والتميّز وتمتزج مع غيرك من الحجاج الذين جاؤوا من كل فجّ عميق كأنك وُضعتَ معهم كلهم في قِدْرٍ واحدة تَمَّ تحريكها لكي تمتزج فيها التوابل وتكون الطبخة من ثم طبخةً واحدة! حين ننظر في النصوص التي فيها حديث عن ما بعد مرحلة التعارف بعرفة نجد شيئا اسمه "الإفاضة"، ونجد أن الناس يُفيضون ﴿**فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ**﴾(البقرة:١٩٨). والإفاضة توحي بأن ثمة قوةً تُذلل العقبات التي في طريقها: كجمرة العقبة التي ليس رجمها رجما لإبليس، وإنما هو تذليل للعقبات التي تحول دون الناس والتعارفِ فيما بينهم ومن ثم التعاون على البر والتقوى سواء من باطن أم من ظاهر.

وفي هذا رسالة للبشرية جمعاء لتحقيق الامتداد النابض لنفَس التعارف ذهابا إلى الكعبة وإيابا منها، حيث يلتقي الناس من كل فج عميق فيتعارفون، ويتشاطرون أضرب الحكمة المتعالية، ثم يعودون بها لأقوامهم ويأتي آخرون... وهكذا دواليك، في حركة تحاكي نبض الفؤاد.

الواقع البحثي في مجال الأديان المقارنة

ويحق لنا من خلال هذا النموذج المعرفي أن نسائل الواقع البحثي في مجال الأديان المقارنة... فلنذهب مثلا إلى مكتبة موريال، أو مكتبة كمبريدج أو مكتبة جامعة محمد الخامس ولنبحث عن

صورة الآخر في الديانات المختلفة، فسوف نجد أنها تندرج جميعها -إلا ما استثني- ضمن الخانات الثلاثة الأولى؛ كما سوف نجد أن البحوث التي تندرج ضمن الخانة الرابعة قليلة، أما الخانة الخامسة فحدث عن النذرة ولا حرج.

مما يعني أن صورة الآخر في الكتابات التي تدرّس في مقررات تاريخ الأديان تكون في أغلبها إما توظيفية، أو تبشيرية، أو تقريرية؛ تقرر الواقع وترصده كما هو. وفي حالات نادرة جدّا تكون توفيقية؛ ولذلك فإن الباحثين الجادين الذين يريدون بالفعل البحث عن تجليات هذا النموذج المعرفي التعارفي في الدراسات والأبحاث والكتابات المختلفة سيجدون فراغا كبيرا.

كيف يمكن إذن أن نطمح للقيام بهذه التأسيسات ضمن الخانة التعارفية في المقررات التي تدرس للطلبة، وفي التكوينات التي تعطى للقساوسة أو تعطى للأئمة أوللحاخامات، أو لأهل الديانات الأخرى؟ كيف يمكن أن نوصل البعد التعارفي إلى هذه التكوينات لكي لا يبقى بُعدا شعاراتيا، ويصبح واقعا حيا معيشا؟

إن هذا يصعب أن يتأتى بغير المقاربة البرهانية المخلصة سعيا إلى استخلاص وتحرير البحث العلمي من الشواهدية (أي طلب الشهادات)، ومن البراغماتية الجامدة وكذا من التوظيفية؛ فالمقاربة الشواهدية للدراسة والبحث قد جنت على البحث العلمي ما جنت، وهذه قضية تحتاج للعلاج من النواحي المنهجية والتوجيهية وكذا التشريعية.

أما القضية الثانية التي تستدعي العلاج فهي النفعية؛ فالمعاهد العلمية تحتاج -من أجل البحث- إلى تمويل، غير أن هذا التمويل غالبا ما يكون مشروطا؛ فالمؤسسات الداعمة تقول للباحث، بطريقة أو بأخرى: إذا أردت أن أعطيك هذا الدعم أو هذه المنحة البحثية فيجب أن يستجيب بحثك لجملة من المواصفات البراغماتية التي أتوخاها "أنا"، ومن ثم فإن الأبحاث والأعمال التي تنتج في هذه الإطارات تدخل ضمن الخانة التوظيفية بامتياز. وهو الأمر الذي يجب تجاوزه بإدخالِ بُعد العمل الاجتماعي في العمل البحثي.

إن كثيرا من الناس لا يتصورون العمل الاجتماعي خارج الأمور المتعلقة بالمجاعات والكوارث وقضايا اجتماعية كالصحة على سبيل المثال، بيد أن العمل الاجتماعي في المجال البحثي محوري أيضا وبالغ الأهمية.

واعتماد المقاربة البرهانية يقوم على ركنين:

الركن الأول: وهو عود على ما ذكرناه في مطلع هذا المقال، ومفاده: وجوب إدراك أن هذا الكوكب الأرضي كوكب محدود، وأن محدوديته تفرض التعايش، وأن هذا التعايش يجب أن يكون تعايشا مستداما، ولكي يكون كذلك فلا بد أن تكون لدينا القدرة على معرفة الآخر وفهمه، وأن نعينه أيضا على معرفتنا وفهمنا من خلال التواصل معه حتى نستطيع التعامل والتعاطي والتعاون الإيجابي على البر والتقوى.. فحينما نستطيع بحثيا أن نبرهن على أن هذا الخيار لا يمكن التخلي عنه، وأنه أمر ضروري وشرط لا محيد عنه من أجل

كل تعايش إيجابي وبنّاء لنا مجتمعين فوق كوكبنا، فسوف نكون قد برهنا بالفعل على ضرورة القيام بالبحث والدراسة والحوار ضمن الخانة التعارفية.

أما الركن الثاني: فهو الركن الوظيفي؛ والذي يدرس التاريخَ سوف يجد الشواهد المتعددة على وظيفية المقاربة التعارفية؛ فحينما سادت هذه المقاربة في بغداد كان فيها من الازدهار ما كان، وكذا حين سادت هذه المقاربة التعارفية في قرطبة وفي أصفهان وشيراز وسمرقند ودلهي وغيرها... وجلي أن الانتصار لنجاعة هذه المقاربة لا يحتاج إلى كثيرِ مرافعة، فنحن إن لم نتعايش سوف نفوت فرصا ضخمة للبناء المشترك، وإن لم نحذر فقد يدمر بعضنا بعضا.. في حين أننا إن تعايشنا ازدهرنا جميعا، واستفاد بعضنا من بعض، ونفع بعضنا بعضا...

وإن صحّ لنا -انخراطا في استمرار البحث في هذه القضية المحورية- أن نختم بسؤال، فليكن هو الآتي: كيف السبيل إلى تعميم هذه المقاربة التعارفية في الجوانب البحثية والتكوينية؟ وتجاوزِ العادات والممارسات الستاتيكية أو السلبية التي لا تزال بهذا الصدد تسود في محافلنا الحوارية وفي جامعاتنا.

الحوار الحضاري؛ صوب مقام التعارف[1]

أ.د. سمير بودينار[*]

لا تنفك قضية الحوار الحضاري تلح في حضورها على راهن الجماعة الإنسانية، عاكسة باستمرار مستوى تدبير العلاقة بين أفرادها، والقدرةَ على حل الإشكالات التي تعترض مسارها، سواء في الصورة المثلى حين يتحقق الرقي بمستوى تدبير تلك العلاقة، أو في صورة شائنة حين تتفجر أوجه الصراع بين الجماعات المختلفة، عبر عناوين سياسية أو اقتصادية أو عرقية أو طائفية أو مذهبية، فتنسد قنوات الحوار أو تتضاءل فرصه حتى تكاد تنعدم.

ولأجل ذلك كانت أهمية النظر العميق في قضية الحوار، ليس بوصفه ضرورة واقعية فحسب، بل باعتباره خيارا إنسانيا ممتدا في الزمان والمكان، وطريقا غايته الصحيحة إبراز الهوية المتفردة لكل جماعة بشرية ضمن الأسرة الإنسانية، لا طمس تلك الهويات بالتأحيد؛ ما يوصل في النهاية إلى الإعلاء من إنسانية الإنسان ككائن

[1] نشر هذا المقال في العدد ١٨ من مجلة حراء سنة ٢٠١٠

[*] مدير مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية – وجدة/ المغرب

مسؤول ومكرم، يواجه تحديات وجودية مشتركة لا فرصة للتعامل معها إلا بالتواصل والتحاور بين التجارب المتعددة للحضارة الإنسانية. وهو حوار يفضي بدوره إلى التعاون الذي يبلغ بالإنسان مرتبة "التعارف"؛ ذروة الخيرية في صلته بأخيه الإنسان.

الحوار انعكاس للتجارب الحضارية المتعددة وطريق التعارف، ولعل واحد من أكثر الأسئلة التي تلح على راهن الإنسان وحضارته، هو ذلك المتصل بإمكان تحقق التعارف بين التجارب الإنسانية المتعددة لتلك الحضارة، والطريق المؤدية إلى ذلك التعارف، والقيم الباعثة على سلوك هذا الطريق.

وفي نص يفيض بالأدب والحكمة من التراث الإسلامي ترد قصة بليغة تعكس مقدار ما يعود به التواصل بين تجارب الشعوب والأمم، من فائدة على مجموع المتواصلين، يرويها الشاعر الكبير "جلال الدين الرومي" (٦٠٤هـ/١٢٠٧م -٦٧٢ هـ/١٢٧٣م) في ديوانه الشهير "المثنوي". وهي قصة تنافس أهل الروم وأهل الصين في علم التصوير التي تروي "أن الصينيين قالوا: نحن أكثر مهارة في النقش، وقال أهل الروم: بل نحن أصحاب الكر والفر فيه، وقال السلطان: وأنا أريد امتحانا في هذا الموضوع لنرى من المبرّز منكم في دعواه؟.

وعندما حضر نقاشو الصين والروم، كان الروم أكثر وقوفا على هذا العلم.

وقال نقاشو الصين: ليخصص لنا منزل ولكم منزل، وكان المنزلان متواجهين، أخذ أحدهما نقاشو الروم، وأخذ الآخر نقاشو الصين.

وطلب نقاشو الصين مائة لون من الملك ففتح خزائنه.. وكان لنقاشي الصين كل يوم من خزانة الألوان جعل معين.

وقال نقاشو الروم: لا نقش ولا لون جدير بهذا العمل، اللهم إلا صقل الصدأ. وأغلقوا الباب وظلوا يصقلون، وصار (ما صقلوه) كالسماء بسيطا صافيا... وعندما فرغ نقاشو الصين من العمل، أخذوا يدقون الطبول فرحا. ودخل الملك فرأى صورا في ذلك المكان، كانت تسلب العقول والألباب. ثم انتقل صوب نقاشي الروم، فكشفوا ستارة كانت موضوعة أمامه، فانعكست تلك الصور وتلك الأعمال على تلك الجدران الصافية.

وكل ما رآه هناك، انعكس هنا أفضل، فكانت تخطف العيون من محاجرها".

إن هذا النص على قصره يعطينا عددا من الدروس في إدارة العلاقة بين التجارب الحضارية المتعددة، فضلا عن الحكمة من التعدد المغني في الخبرات الحضارية للأمم، ومحصلته أن الحضارة الإنسانية تغنى بكافة التجارب -صينية ورومية- ويرقى المنجز الحضاري بالتفاعل بين تلك التجارب (عبّرت القصة عن هذا التفاعل بانعكاس الصورة في عمل الآخر واكتمال جماليتها به وفيه)، وبالتالي بلوغ الهوية مستواها الأرقى في مقام التواصل مع الآخر وتجلي منجزها الحضاري بالتفاعل البناء معه.

إن الحدود الحقيقية للهوية لا تتجلى إلا بالتواصل الإيجابي مع غيرها، ولا تظهر ميزاتها بالنسبة لذلك الغير، ولا قيمتها في ميزان

الحضارة ومقدرتها على إثرائها إلا بسلوك الإنسان -كيفما كانت هويته الجماعية وانتماؤه المجتمعي وتجربة أمته- مسلك التواصل الذي يؤدي، ما إن تنضج ظروفه الفكرية والنفسية إلى التحاور، ولعل الفيلسوف المسلم الكبير طه عبد الرحمن كان بليغا في التعبير عن هذه الحالة التواصلية وأهميتها بالنسبة للإنسان، هويته ومستقبله حين اعتبر أن "الهوية فرع عن الأصل الذي هو الغيرية".

تتجلى أهمية الدفع باتجاه مستوى الحالة الحوارية من مسار الإنسان، في أنها الحالة التي تضمن تأسيسا واعيا لتواصل بناء بين مختلف تجارب الحضارة، ما يتيح لها فرصا للرقي. غير أن التواصل فضلاً عن ذلك يمس جانبا آخر لا يقل أهمية من جوانب حياة الإنسان وفرص عيشه المستقبلية، وهو بلوغه منزلة التعاون. وهذه درجة من حسن تدبير العلاقة بين أطراف الجماعة الإنسانية لا تُبلغ إلا بمستوى من الوعي يستوعب التعدد كحالة طبيعية وسنة كونية، ويؤسس على هذا الوعي استثمارا لفضائل ذلك التعدد، وأهمها التفاوت بالضرورة في مستويات الإفادة من إمكانات الوجود، وتفاعل الملكات الإنسانية معها إصلاحا وابتكارا وإعمارا وإزهارا.. وهو ما يؤدي إلى الحاجة المتبادلة بين مختلف المجتمعات والأمم تبعا لذلك التفاوت بينها كل في مجال، وضرورة التعاون بينها لإفادة كل منها من التجارب الرائدة والخبرات السابقة لغيره من الأمم.

وعند هذا المستوى، لا شك أن أفقا جديدا للحوار يتجلى. وهو هنا غير الحوار بوصفه تناظرا استدلاليا شرطه الارتكاز على المثال

الأعلى، بل الحوار بين فهوم متباينة وتطبيقات متنوعة تحاور بعضُها بعضا من خلال قدرة الجماعة على التعاون بالاستفادة من فهم غيرها وتطبيقه لمنظومة أفكاره، وبالتالي اقتباس كلٍ تجربةً خاصة من غيرها أفضل ما عنده أو أنسبه لها.

وإذا كان الحوار سبب التعاون، فإن التعاون بدوره هو طريق التعارف، وهو منزلة لا تضاهيها في سلم التواصل بين الإنسان منزلة أخرى، إذ أن التعاون نفسه يمكن أن يساء استخدامه، إما بالتعاون على غير ما يحقق للإنسان الخير والسلم من قيم، أو بالتواطؤ على غير ما يحقق العدالة من مواقف وأحكام. ولذلك جاء تخصيص مجال التعاون بين الناس في القرآن الكريم على البر والتقوى، أي على الأخلاق الإنسانية السامية وقيم الإحسان ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى**﴾، كما ورد التحذير من التعاون على ما يناقض تلك القيم، أو يؤدي إلى اختلال موازين العدالة بالظلم والاعتداء: ﴿**وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾(المائدة:٢).

أما التعارف فهو الغاية من التعدد في الجماعات البشرية التي أوجد الله عليها العالم. ليس فحسب لأن ذلك التعدد قانون كوني إنساني ينبغي تدبيره، بل لأن التعارف منزلة إنسانية أخلاقية وحضارية راقية، يُحفز الإنسان على بلوغها، ذلك أنه عند هذا المستوى من الرشد في العلاقات بين المجتمعات تزول مخاطر التعاون، بل التواطؤ على الجور أو الحيف أو أنواع الرذائل. لأن المقام مقام تعارف أي اتفاق وتلاق وتواصل وتعاون على المعروف والعرف،

وهي المبادئ والقواعد الجامعة لمعاني الخيرية والأخلاق الفردية والمجتمعية: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات:١٣).

والخلاصة أن الإجابة على سؤال الهوية، بل التحقق الإنساني للهوية بكل ما يواجهه من تحديات مشتركة في عالم اليوم، لا طريق له إلا طريق الحوار الذي يؤسس التواصل الإنساني فيستحيل تعاونا، ثم يرقي حينئذ إلى مستوى يحفظ للإنسان -كما لكل جماعة إنسانية- هويتها، في ظل سعي مشترك إلى تحقيق الإفادة المتبادلة مما عند الآخر، بل إلى إثراء تلك الهوية بالتحالف على المثل والقيم العليا، التي تنادي بها الفطرة السليمة للإنسان -مطلق الإنسان- وذلك هو مقام التعارف.

المشترك الإنساني وثقافة الحوار[1]

الشيخ عبد الله بن بيه[*]

إن لدى الإنسانية مشتركات كثيرة أدَّى تجاهلها وإذكاء الخصوصيات تجاهها، إلى كثير من الحروب والدمار وإلى ابتعاد البشرية عن القيم التي أرساها الأنبياء؛ قيم الخير والمحبة والتراحم.

وتكون هذه المشتركات على مستويات مختلفة، منها مشتركات على مستوى الدين الواحد، ومنها مشتركات على مستوى الديانات، ومشتركات عليا يجتمع فيها جميع البشر تتجسد في القيم الإنسانية التي تجمع عليها البشرية بدياناتها المختلفة وفلسفاتها الكونية المتنوعة. وإن تفعيل هذه الدوائر والوصل بينها في تناغم وانسجام، من شأنه أن يرأب الصدع ويزيل سوء الفهم ويخفِّف من غلواء الاختلاف.

---

[1] نشر هذا المقال في العدد ٦٩ من مجلة حراء سنة ٢٠١٨

[*] رئيس منتدى تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة ومؤسسة الموطأ في "أبو ظبي". تم اختياره من قبل جامعة جورج تاون كواحد من أكثر ٥٠ شخصية إسلامية تأثيرًا في العالم للأعوام ٢٠٠٩-٢٠١٦م / موريتانيا.

إننا أمام فشل حضاري يحطُّ من قيمة الإنسان، فما جدوى أن يغزو الإنسان الفضاء ويبلغ أقصى الكواكب وهو عاجز عن التفاهم مع أخيه ونظيره ومثيله!

مكانة الآخر في الإسلام

إن الآخر في رؤية الإسلام هو الأخُ الذي يشترك معك في المعتقد أو يجتمع معك في الإنسانية. ويتجلى هذا بسُمُوٍّ في تقديم الإسلام الكرامةَ الإنسانية بوصفها أول مشترك إنساني، لأن البشر جميعًا على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ومعتقداتهم، كرمهم الله ﷻ بنفخة من روحه في أبيهم آدم عليه السلام، ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾(الإسراء:٧٠)، فكانت الكرامة الإنسانية سابقة على الكرامة الإيمانية.

وهكذا، يشدد الإسلام في التصور الكلي للآخر، على وحدة النوع والمساواة في الكرامة الإنسانية، والبحث عن تنمية المشتركات ونبذ معايير التفاضل إلا بالخير والتقوى، وهو ما عبّر عنه الإمام علي رضي الله عنه بقوله: "قيمة كل امرء ما يحسنه".

المشترك الإنساني هو القيم الكونية التي لا تختلف فيها العقول، ولا تتأثر بتغير الزمان أو محددات المكان أو نوازع الإنسان، لأن لها منابت وأصولاً تحفظها من عوادي الدهر وتعسفات البشر.

أكثر الفلاسفة تحت قيادة "كانت" رئيس المذهب المطلق، يرون أن الحق والخير والجمال هي قيم أزلية لا علاقة لها بالزمان ولا بالمكان، فما كان قيمة في الماضي هو قيمة في الحاضر، وسيظل

قيمة في المستقبل، وأن هذه القيمة بالنسبة للصيني وبالنسبة للأوروبي وبالنسبة للعربي، هي قيمة واحدة ولو كانوا يجهلون ذلك.

وهذا المذهب المطلق أرى أنه هو الذي تؤيده الديانات السماوية وتقدمه أوعية اللغة ومفاهيمها؛ فـ"العدل" في كل لغة وفي كل مكان كلمة جميلة، وعندما ننطق كلمة "الوفاء" فإنها كلمة جميلة، وعندما ننطق بـ"الظلم" وبـ"الغدر" نجدها في كل اللغات والثقافات كلمات ممقوتة. بل حتى الظالم والغادر لا يريد أن يكون كذلك، ويود لو كان عادلاً وفيًّا صادقًا.

هذه القيم المشتركة يجب إعادتها في حياة الناس، وهي مبثوثة في كل رسائل ودعوات الأنبياء، والإنسانية كلها اليوم محتاجة إليها حاجة الفطيم إلى الحنو والحنان والعطف بعد أن أحال السفهاء والمجانين مجالات حركتها إلى حقول ألغام؛ إنها قيم السلم الثابتة التي لا تتغير، وهي الأمر الكلِّي الذي لا تتخلف جزئياته ولا تخص جنسًا دون جنس أو دينًا دون دين.

لقد أصبح من الضروري المستعجل أن نتجاوز الشجب والتحذير لنبادر إلى الفعل في الوقت المناسب، فلن يكون للأجيال الآتية أي وقت للفعل، ويخشى أن تصبح هذه الأجيال أسيرة سيرورات ليس لها عليها سلطانٌ كالنمو السكاني والتدهور البيئي والتفاوت بين الشمال والجنوب أو التمييز الاجتماعي.

أن ننتظر إلى الغد، يعني أن نصل دائمًا متأخرين، فثمة شيء في غاية الهشاشة نحن مؤتمنون عليه: إنه الحياة في هذا الكوكب الأرضي.

على هذا الشعور بالمأزق تتأسس المسؤولية المشتركة التي ضرب لها النبي ﷺ مثال السفينة، حيث قال: "**مَثَل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قومٍ اسْتهَموا على سفينة، فأصاب بعضُهم أعلاها، وبعضُهم أسفلها، فكان الذي في أسفلها إذا استقَوْا من الماء مرُّوا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقْنا في نصيبنا خرقًا ولم نُؤذِ مَن فوقنا؟ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعًا، وإنْ أخذوا على أيديهم نجَوْا ونجَوْا جميعًا**" (رواه البخاري).

إن البشرية الآن في سفينة واحدة على وشك الجنوح، فلا بد لأهل القيم أن يأخذوا على أيدي الذين يريدون خرق السفينة.. ينبغي الانطلاق من الرغبة المشتركة النابعة من المسؤولية المشتركة في إحلال السلم محل الحرب، والمحبة مكان الكراهية والوئام بدل الاختصام، إذ من شأن ذلك أن يعبئ طاقات رجال الدين والمثقفين والأكاديميين من كل الأديان والثقافات للتحالف في حلف فضول، لإزالة هذا الخطر الحضاري.

الحوار ضرورة إنسانية

ويقوم هذا الحلف على تعزيز قيمة الحوار. فالحوار واجب ديني وضرورة إنسانية وليس أمرًا موسميًّا. الحوار من أصل الدين ومن مقتضيات العلاقات البشرية، ولذا أمر به الباري ﷻ فقال: ﴿**وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾(النحل:١٢٥)، وقال :﴿**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**﴾(العنكبوت:٤٦). بالحوار يتحقق التعارف والتعريف، والحوار يشهد للاستعداد الحاصل لدى جميع

الأطراف لتقديم وجهات النظر النافعة والصالحة لحل مشاكل الكوكب الأرضي الذي نعيش عليه.

الحوار قيمة، والحوار مفتاح لحل مشاكل العالم. الحوار احترام الاختلاف؛ فصاحب الحوار يحترم الاختلاف بل يحب الاختلاف، بحيث ينظر إليه كإثراء، كجمال، كأساس لتكوين المركب الإنساني.

الحوار يدخل في قوله تعالى: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾(فصلت:٣٤)، فهل لنا أن نأمل بالحوار اليوم في تنمية جوانب الخير والقيم الإنسانية الخيرة المشتركة؟

الأصل في الحوار هو الاختلاف

إننا لا ندخل في الحوار إلا ونحن مختلفان، بل إننا لا نتحاور إلا ونحن ضدان؛ لأن الضدين هما المختلفان المتقابلان، والحوار لا يكون إلا بين مختلفين متقابلين أحدهما يُطلق عليه اسم "المُدَّعي" وهو الذي يقول برأي مخصوص ويعتقده، والثاني يُطلق عليه اسم "المعترض" وهو الذي لا يقول بهذا الرأي ولا يعتقده.

وأساليب الحوار عديدة، وصيغه متنوعة؛ فالحوار في الصحافة والقنوات وداخل الأندية والمؤتمرات ومجالس الشورى والبرلمانات، والمفاوضات التجارية في المنظمات الدولية للتجارة، وبين الأفراد في الأسواق والبورصات، وخصومات الأزواج في البيوت.. وكل نوع من هذه الأنواع له طرقه وأساليبه، ويكون داخل الشعب الواحد حيث تتسع دائرة المشترك، وبين الشعوب المختلفة كالحوار بين الشرق والغرب، وبين الأديان والملل المختلفة، فيكون المنظور الإنساني هو من يشكل آفاق الحوار.

والحوار يقدم -كما يقول أفلاطون- البدائل عن العنف؛ لأنه بالحوار يُبحث عن المشترك وعن الحل الوسط الذي يضمن مصالح الطرفين، وعن تأجيل الحسم العنيف، وعن الملاءمات والمواءمات التي هي من طبيعة الوجود، ولهذا أقرّها الإسلام، وأتاح الحلول التوفيقية التي تراعي السياقات وفق موازين المصالح والمفاسد المعتبرة.

إن اعتماد وسيلة الحوار لحل المشكلات القائمة يوصل إلى إدراك أن الكثير منها وهمي لا تنبني عليه مصالح حقيقية، وبهذه الحلول التوفيقية التي يثمرها الحوار، تفقد كثير من القطائع والمفاصلات والأسئلة الحدّية مغزاها.

وينبغي أن يكون الحوار عميقًا عمق الإشكال الذي يعالجه، حوارًا يطول جميع المستويات ويتجسد في كافة القطاعات، ينطلق من أبسط مستويات الحياة المجتمعية إلى أكثرها تعقيدًا وتركيبًا من البيت إلى الجامعة.

غرس التسامح في النفوس

لا بد من غرس ثقافة التسامح في النفوس.. يجب اتخاذ السبل بكل الوسائل التثقيفية وفي مقدمتها التعليم والتربية، والإعلام الجماهيري؛ لإيجاد تلك القيم والتصوُّرات لضبط وكبح جماح النفوس الميالة إلى العنف، وترجيح كفَّة التسامح وحسن تقبُّل الآخر، وباختصار، إيجاد الروح الاجتماعية والتعايش البناء بين أفراد المجتمع.

ومعنى ذلك أنَّ المثل والقيم التي يتلقّاها ويلقنها أفراد المجتمع عن طريق القنوات والأدوات التثقيفية في مختلف مراحل التعليم، ووسائل الإعلام بشتى أشكالها، وغيرها من وسائل الاتصال الجماهيري ذات المضمون الرصين المتسامح والمتعقّل، لا يخرج على النّهج العام السائد والأعراف المقبولة، لشحن العواطف وإلهاب المشاعر دون وزن للعواقب ولا مبالاة بالنتائج.

إذن، فلا بد من علاج بالمضادات، ونعني بالمضادات الحيوية؛ ذلك الخطاب الحي الواعي الذي يقوم على نبذ العنف وزرع ثقافة السلام والتسامح والمحبة، وتقديم البدائل أمام الشباب اقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا، ومحاولة صرف جهودهم ونشاطهم في قنوات لصالح المجتمع ولصالح التنمية، وجَسر العلاقة بين مختلف الفئات وتجديد الفكر التوفيقي والمنهج الوسطي في النّفوس، وحشد جهود الطبقة المثقفة في الجامعات والمدارس ووسائل الإعلام لذلك.

فعندما تتصالح الأديان وتتصافح، فإن من شأن ذلك أن يعزز روح السلام في العالم، ويسهّل الولوج إلى طريق العدالة والخير ومعالجة المظالم والمظلوميات. وكما قال اللاهوتي السويسري "هنس كونج": لا يمكن للسلام العالمي أن يتحقق بدون أن يتحقق السلام بين الأديان.

ولقد آن لرواد الديانات أن يبرهنوا على فعالية أفضل وانخراط أكبر في هموم المجتمعات البشرية، لإعادة الرشد وإبعاد شبح الحروب والفتن المهلكة. إذا كان البعض ينظر إلى الدين كعامل

تفرقة وتمزيق لنسيج الشعوب، فنحن في مبادرة القوافل نريد أن نبرهن عمليًا على أن الدين يجب أن يكون سبيلاً لالتئام المجتمعات البشرية والقضاء على أمراض الحقد والكراهية المستحكمة. تلك هي العبرة والدعوة والرسالة التي نوجهها من خلال هذه القوافل، إذ إن التضامن والتعاون، يجب -في النهاية- أن يبرز، وأن ينجز أعمالاً ميدانية تبرهن للعالم كله أن الدين في أصله هو عامل خلاصٍ ورحمة للعالمين.

إن ذلك يحمِّل رجال الدين عبئًا فيما يتعلق بكل ديانة، لمعالجة التطرف والغلو، وإعادة التوازن في نطاق كل ديانة لبناء الجسور بين الديانات على أسس صلبة ودعائم قوية قابلة للاستمرار والاستقرار بل للازدهار والانتشار، لإعلان الانتصار على الشر.

وفي الختام، فإنه يتعيّن أن نحمل جميعًا رسالة السلام التي تعني:

- أن ندرك حقائق المفاهيم المؤطرة للسلام، وأن ندرك -في نفس الوقت- زيف تأويل المتطرفين وتحريف الغالين.
- أن ننشر هذا الفهم من خلال كل الوسائل المتاحة في الصحافة والتعليم.
- أن نقدّم مبادرات ميدانية لإفشاء السلام في المجتمعات التي نعيش فيها.
- أن نشجع برامج التسامح والتعايش.

- أن نقدم القراءة الصحيحة للشريعة، وأن نؤطر الأحكام التكليفية بخطاب الوضع، ومعنى ذلك، أن ننزل النصوص في بيئة الواقع ليكون التنزيل متوخيًا لمقاصد الشريعة.
- أن نتضامن مع أولي بقية في كل مكان لنشر قيم السلام.

ويكون السير في ثلاثة اتجاهات:

١- ترتيب بيت الإسلام من خلال تفكيك منظومة الفكر المتطرف، وإظهار عوار طرق الاستدلال لدى هؤلاء وضحالة منازعهم في الاستنباط بإبراز المناهج الصحيحة والمآخذ السليمة في التعامل مع نصوص الكتاب والسنة، وهكذا فيكون الكلّي حاكمًا على الجزئي، ويكون الجمع بين الأدلة بديلاً عن التجزئة، وتصبح المقاصد مترجمة لمغزى النصوص ومبينة مدى تطبيقها ومبرزة سبيل انسجامها وتنسيقها.

لنبين بحق أن الشريعة إنما جاءت لمصالح العباد في عاجلهم وآجلهم، وأن الرسالة الخاتمة إنما جاءت رحمة للعالمين، وأنه لا تعارض بين العقل والنقل، إلى غير ذلك حتى يُقضى على أفكار التطرف وآراء المتطرفين بالحجة والبرهان.

وهذا الجهد داخل البيت الإسلامي ضروري لهزيمة الفكر المتطرف الذي يشوه الإسلام ويقدم الذرائع للكراهية والبغضاء، لأن العلاقة بين متطرفي الإرهاب ومروجي الكراهية علاقة تلازمية، فكل منهما يمد الآخر، ويؤثر كلاهما على الآخر تأثيرًا طرديًّا وعكسيًّا.

٢- نقل الحوار إلى الدائرة الثانية، وهي الدخول في حوار على مستوى عالمي، لتقديم الرواية الصحيحة عن الإسلام، والتعايش مع المسلمين، من خلال التأكيد على الصورة المنفتحة والمتسامحة للإسلام، والمصالح المتبادلة والمتداخلة بين المسلمين وغيرهم في المجتمعات، وتأكيد قيمة المواطنة والقيم الإنسانية النبيلة.

٣- الانتقال إلى مرحلة التضامن مع أولي بقية يلتزمون بالقيم والمثل المشتركة للأخوة الإنسانية، لتكوين "حلف الفضول" الذي ينبذ التمييز والكراهية، ولا يحمّل دينًا ولا حضارةً جريرة السفهاء على قاعدة: (**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**)، حلف يدعو إلى السلام والإخاء بين أبناء البشر كافة، ذلك هو التيار الذي يجب أن تشكله النخبة من رجال الدين والفلسفة، ورجال الفكر والأكاديميين من كل الديانات ومن كل الفلسفات.

---

(١) هذا المقال جزء من الكلمة التأطيرية لمنتدى تعزيز السلم ٢٠١٧ المعنونة بـ"السلم العالمي والخوف من الإسلام".

مستويات الحوار الحضاري مع الآخر[1]

أ.د. مريم آيت أحمد[2]

الحوار مبدأ راق لا يكاد يرفضه عقل سليم، وهو خطوة أولى نحو التعرف على الذات وإزالة سوء الفهم داخل الدائرة الواحدة (الذين يشتركون في ثقافة وحضارة واحدة)، وهو المدخل "الإنساني" للاقتراب من الدوائر الخارجية (خارج الحضارة الواحدة)... وحتى يكون الحوار مثمرًا ومؤثرًا ومقنعًا،

لا يتم -عادة- في ظروف غير طبيعية. وكأي نشاط إنساني إذا حدث بين متكافئين يقدّر كل منهم الآخر، تكون له ثمراته وفوائده. وبالعكس إذا تم في ظروف "طارئة" وبين غالب ومغلوب، فإن نتائجه -في الغالب- لا تكتسب صفة الاستمرار حتى وإن خففت بعض مواطن الاحتقان والألم أو ساعدت على تجاوز ما يهدد أحد الأطراف. والحوار له مستويات مختلفة باختلاف قضاياه وموقع المتحاورين.

---

[1] نشر هذا المقال في العدد ٣٢ من مجلة حراء سنة ٢٠١٢

[2] أستاذة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل/ المغرب

حوار التعايش

فهناك حوار التعايش بين الناس حول موضوع التعايش بين أفراد الأمة الواحدة أو بين أفرادها وبين أفراد الحضارات الأخرى. وهذا المستوى من الحوارات، هدفه إزالة الحواجز التي تعيق التواصل، وتولد الجفوة والكراهية بين الأفراد العاديين، ومسرحه وموضوعه، المشاعر الإنسانية والحياة اليومية. وهو لا يتطلب مستوى عاليًا من الثقافة ومعرفة الآخر بقدر ما يحتاج إلى استحضار الأخوة الإنسانية، وفوائد روح التعاون، وثمرات حسن المعاشرة، والذوق الذي لا يحقر الآخرين أو يسخر من ثقافتهم أو يقوم بما يجرح مشاعرهم. وهذا المستوى من الحوار فطري يتجلى في حياة الناس اليومية وعلاقاتهم الإنسانية، إذ يدخل في إطاره الشاب المزارع، والصانع، والعامل البسيط... وهؤلاء الشباب ينبغي أن لا يستثنوا من فهم أدبيات حوار التعايش كما فهمها جيل سلفنا الصالح وطبقوها بالتعايش والتراحم مع أهل الذمة كما عايشهم رسولنا الكريم ﷺ، وأصّل له بمعاهدة وفد نجران وصحيفة المدينة المنورة. وأكمل عمر بن الخطاب ﷺ منهج المدرسة النبوية بتتويج تاريخنا الإسلامي بالعهدة العمرية، ببنودها الإنسانية الراقية في مراعاة حقوق وواجبات أهل الكتاب.

الحوار المعرفي

وهو حوار بين أصحاب الفكر والعلماء. وهذا المستوى يتطلب منا اليوم، وأكثر من أي وقت مضى مع ثورة العولمة والانفتاح العالمي، أن نؤهل كوادر من شبابنا للمشاركة فيه، وتمكينهم من مفاتيح الدخول إلى المعرفة العميقة بفكر وحضارة الآخر، والقدرة

على فحص مقوماتها والتعرف على أسسها ومبادئ منظومتها الفكرية والفلسفية والدينية والسياسية والاقتصادية. وهذا الشباب المرشح لتأهيله للحوار، ينبغي أن تتوفر فيه شروط أولى وأهم، وهي أن يكون متمكنًا حقًّا من فهم مكونات وأسس حضارته، ولديه القدرة على استخلاص قيمها الأصيلة التي لا تتأثر بالراهن الظرفي من الأحداث. ولأن هذا الحوار -بطبيعته- هو حوار بين شباب مختص يضم مجموعات متعددة من الاختصاصات؛ فيها شباب مختص في علم العقائد والشرائع والأديان، وأطر متخصصة في التاريخ والفقه وأنظمة الحكم، وباحثون في علم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والعمران.

فموائد الحوار مع الآخر تقتضي -حتى نخرج من نفق التعميم- توزيع الاختصاصات، وتخصيص الندوات والمؤتمرات، وحلقات النقاش لكل محور على حدة، حتى يصبح الشباب فعلاً قادرًا على ضبط الحوار في إطاره وموقعه. وبذلك يستطيع أهل الاختصاص ممن أهلناهم للمنافسة الحضارية العالمية، أن يتحدثوا لغة مشتركة يفهمها جيدًا شباب الثقافات والحضارات المراد الحوار معها.

الحوار الإنساني

من أولويات الحوار الحضاري، دفع الحوار في اتجاه معرفة "الإنسان"، فهذه المعرفة ضرورية للوقوف على مدى جدوى الحوار، إذ لو كان الإنسان حلقة متطورة من السلاحف والديدان والقرود، وكانت الحياة قائمة على أساس تنازع البقاء وصراع المصالح المادية، لقامت العلاقة على أساس الحرب والقتال لا على الفكر

واللسان... أما الحوار الإنساني، إنما يقوم بين البشر على خلفية الإيمان بالجانب المعنوي السامي في الإنسان وليس الجانب المادي فقط. فنزعة "الطين" وحدها لا تؤدي إلى تعايش سلمي، بل تدفع إلى صراع مصلحي محموم، والسلام والتعايش والتفاهم والحوار، مقولات تتحقق في ظل نفخة روح رب العالمين في هذا الموجود البشري بالتعبير القرآني: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾(الإسراء:٧٠)، ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾(الحجرات:١٣).

دور الشباب في البناء الحضاري

من أسباب تراجع مفاهيم الحوار الندي المتكافئ مع الآخر لدى شبابنا، عدم وجود تخطيط محكم بعيد المدى، حتى في حالة وجود أهداف وطموحات لهذا الحوار، فغالبًا ما تكون غير مدروسة ولا واقعية. وهكذا، نجد أن تدخلات شباب مجتمعاتنا، تتميز عمومًا بالفوضى والارتجالية وغياب التخطيط المحكم بتأهيل كوادر وأطر، وإهمال تقويم أهداف وطموحات الحوار الفعال مع الآخر.

فالحديث عن الحوار، يتطلب مواجهة التحديات والأخذ بأسباب النجاح والقوة، ومن ذلك فهم أسباب تراجعنا عن الدور الحضاري لأمتنا، وشروط بناء الشخصية السليمة عند الشباب، وتنمية المهارات الإبداعية لإيجاد الحلول المناسبة للمشاكل المطروحة، والتحلي بالجدية والإيجابية والصرامة لمواجهة الواقع، وحسن تخطيط المشاريع والإعداد للمستقبل، والتشبث بالقيم الإسلامية.

بناء الدور الحضاري المؤهل للحوار

إن بناء الدور الحضاري كما عبر عنه "مالك بن نبي"، يحتاج اليوم من الشباب حسن توظيف ثلاثية مشكلات النهضة وهي مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت.

١- الإنسان: إن المشروع الإصلاحي يبدأ بتغيير الإنسان، ثم بتعليمه الانخراط في الجماعة ثم بالتنظيم فالنقد البنّاء. وتبدأ عملية التطور من الإنسان، لأنه المخلوق الوحيد القادر على قيادة حركة البناء وتحقيق قفزات نوعية تمهيدًا لبناء الحضارة. أما المادة، فإنها تبقى تجميعًا كميًّا لا يعطي معنى كيفيًّا نوعيًّا إلا بسلامة استخدام الإنسان له، فلكي يتحقق التغير في محيطنا، يجب أن يتحقق أولاً في أنفسنا، وإلا فإن الشاب المسلم لن يستطيع الحوار مع نفسه وبناء داخله الحضاري الذي يمكنه من الحوار مع الآخر، وعندها يجب على شباب أمتنا أن يحقق بمفرده شروطًا ثلاثة:

أن يعرف نفسه... أن يعرف الآخرين وأن لا يتعالى عليهم وأن لا يتجاهلهم... ويجب عليه في الشرط الثالث أن يعرف الآخرين بنفسه ولكن بالصورة المحببة، بالصورة التي أجريت عليها كل عمليات التغيير بعد التنقية والتصفية من كل رواسب القابلية للانهزام والتخلف الحضاري... فالشباب هو الهدف، وهو نقطة البدء في التغيير والبناء.

إن الحوار هو أبسط صورة لتبادل الأفكار، وهو بذلك المرحلة التمهيدية البسيطة لكل عمل مشترك. فقواعد الحديث إذن لا تخص

حسن الآداب فقط، بل هي جزء رئيسي من تقنية العمل. ونحن نجد هذه الصلة بصورة رمزية في مجتمعاتنا حين نرى تعطلاً في العمل والإنجاز بمجرد تعطل تبليغ الأفكار بالكلام.

فالمشكلة مشكلة أفكار في النهاية، لأننا بها ننظم حوارنا في إثبات ذواتنا، وبها ندفع طاقتنا في إرادة العطاء والإنجاز. وأهمية الأفكار التي نحاور بها في حياة مجتمع معين، تتجلى في صورتين؛ فهي إما أن تؤثر بوصفها عوامل نهوض بالحياة الاجتماعية، وإما أن تؤثر على عكس ذلك بوصفها عوامل ممرضة تجعل النمو الاجتماعي صعبًا أو مستحيلاً.

فالإنسان الذي لا يؤمن بالتفاعل والحوار ينتهي من الوجهة النفسية إلى التشاؤم، كما ينتهي من الوجهة الاجتماعية إلى تكديس المشكلات.

ومشكلة شبابنا اليوم تتخلص في جوهرها في عدم توجيه الأفكار، ولذلك كان علينا أن نحدد المعنى العام لفكرة التوجيه؛ فالتوجيه هو تجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت. فهناك ملايين العقول الشابة المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة لأن ترشد وتوجه للبناء الحضاري حتى لا يذهب جزء كبير منها في العبث واللافاعلية.

إن الشباب المكلف بالتأهيل في عملية الحوار الحضاري لا يمكن تخليصه من عقدة الدونية والمؤامرة باتجاه الآخر، إلا إذا هيأنا له شعورًا متعاليًا بالشخصية الدينية والمعرفية والحضارية من خلال محيطه الداخلي. فالمحيط الثقافي الداخلي الذي يكبر الشاب في ثناياه، هو المكون الأساسي لإطاره وعقله الجمعي الثقافي.

٢- التراب: وهو العنصر الثاني الذي يشكل الحضارة مع الإنسان والوقت في فكر مالك بن نبي. وحيث يتكلم عن التراب لا يبحث في خصائصه وطبيعته، ولكن يتكلم عن التراب من حيث القيمة الاجتماعية، وهي قيمة مستمدة من قوة وتمكين مالكيه. فحينما تكون قيمة الوطن مرتفعة، يكون ثمن التراب غاليًا لدى أبنائه، وهنا يكمن دور الشباب في رفع المزيد من قيمة أوطانهم كما ثمنوها الأجداد والآباء بأرواحهم ودمائهم، حفاظًا على سلامة أمننا وكرامة حريتنا التي نزخر بها اليوم بعيدًا عن ربقة المستعمر.

٣- الوقت: وهو العنصر الثالث في تكوين الحضارة. إن حظ الشباب العربي والإسلامي من الساعات، كحظ أي شعب متحضر، ولكن هل نقدّر قيمة الوقت؟ هل ينتهي الوقت عندنا إلى إنجاز أم إلى عدم؟ هل أحسنا ترشيد شبابنا في عملية توظيف العلاقة التكاملية بين حسن استغلالهم للوقت في خدمة ترابهم لبناء حضارة مجتمعاتهم العربية والإسلامية؟

لقد أمعن مالك بن نبي، هذا المفكر الذي أصّل لشروط النهضة والحوار الحضاري، بتفكيك وتحليل مشكلات البناء الحضاري، متجاوزًا -بوضعها تحت مجهر مختبر المقاربة الحضارية- الظواهر السطحية إلى الجذور المتغلغلة في الأعماق، وباحثًا عن السنن والقوانين الكفيلة بتحويل شباب أمتنا من حالة العجز إلى القدرة والفعالية، ومن حالة مرحلية الانبهار والتقليد والاقتباس المتبع بالاستتباع المطلق إلى حالة البناء والإنجاز، ومن المطالبة بالحقوق

إلى القيام بالواجب أولاً، لأن مفاتيح حل المشكلات بالحوار نجدها في الذات لا عند الآخر. واستكمال تفعيل الشخصية المسلمة باتجاه الواقع، يتطلب الاعتراف بتعدد التشكيلات داخل عالمنا الإسلامي (مذهبية، فكرية، سياسية، جغرافية، عرقية، تاريخية... إلخ) من حيث وجوب إفضائها إلى دلالة مقصدية واحدة، تنتج بدورها كما من الممارسات الغنية بتنويعاتها. كما يتطلب غوصًا في معارف الآخر الغربي، علومه وفنونه وآدابه وفلسفاته، وفرزها وغربلتها وإثراء أفق الذات بما يتوافق مع هذه المعارف وتوجهاتها وغاياتها، ويعمل على إنماء قدراتها ومهاراتها.

دور جوهري للشباب في الحوار

يحتل العالم العربي موقعًا جيوستراتيجيًّا مهمًّا وهو فضاء غني ثقافيًّا وحضاريًّا ويشكل استثناء بتعدده الثقافي، فنجد أن كل دولة من دوله تتضمن ثقافات متفرعة تنصهر في ثقافة وطنية موحدة (الهوية العربية)، بيد أن ذلك التنوع يطرح سؤالاً عميقًا: هل هذا التعدد يعيش في حالة صراع، أم أنه في حالة هدوء تام وخضوع لأدبيات الحوار البناء؟

يبقى المجتمع بشكل عام والشباب بشكل خاص، هو البوصلة في تحديد مدى تلاؤم وتنافر المفهومين؛ فالشباب له دور ريادي بارز في مدى تعاطيه مع مسألة القيم وعلاقته بالآخر، لأن الشباب في الأول والأخير، هو وحدة متنقلة تساهم في التطبيع والتلوث الثقافي إن هي تركت قيمها، أو تتعامل في إطار من الانفتاح المحافظ عن القيم لتشكل فضاء للحوار والتبادل.

وحتى يكون للشباب دوره كمساهم في الحوار الثقافي، يجب أن يأخذ بعين الاعتبار مدى تطلعات المجتمعات العربية وغاياتها بعيدًا عن تكريس أشكال العصبية والتفرقة... والحوار الثقافي الداخلي بين مكونات الذات ليس سهلاً، لأنه يتطلب عناء فكريًّا ونقدًا مزدوجًا للذات والآخر، وتفكيرًا في العوائق الفكرية والنفسانية والحضارية المتراكمة في الترسبات الجيولوجية لكتل الأحكام المسبقة والمترتبة عبر العصور وفي وظيفتها الثقافية.

وبناء على ذلك فإنه على الشباب المسلم إعمال الفكر في نقد ذاته أولاً، والوقوف عند النقاط السلبية التي تحول دون الخوض في حوار ثقافي حضاري تنموي بناء، وكذا القيام بنقد الآخر؛ غايته تحقيق التوافق والتصالح مع الذات والآخر في علاقة تؤسس لفضاء التعايش وتركز على القيم الأخلاقية. فلا بديل للشباب المسلم من أجل التنمية، إلا بحوار ثقافي باعتباره مدخلاً أساسيًّا في نبذ كل أشكال العصبية العرقية والمذهبية والفكرية.

السلام وموقف الإسلام منه[1]

أ.د. إسحاق بن عبد الله السعدي[*]

تعد قضية السلام من القضايا الكبرى في التاريخ. وعلى الرغم من سلاستها وعذوبة لفظها وجنوح الفطر السليمة إليها، وكونها خيار العقلاء والحكماء -قديمًا وحديثًا- في تأسيس علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وفي العلاقات الخاصة والعامة التي تربط بين الأفراد والجماعات والدول والشعوب، إلا أن وقائع التاريخ ومجريات أحداثه، أغفلتها في كثير من الأحوال، أو تلاعبت بدلالاتها ومفهومها وأدخلتها حلبة المزايدات السياسية والتفسيرات الدينية المؤدلجة؛ كذلك تقاذفتها المطامع والمصالح وصراع القوى، مما يحدو بالباحث في هذه القضية الكبرى للنظر لخلفيتها التاريخية، إما كوسيلة للإمبراطورية، وإما كطريق للحضارة على حد تعبير المفكر الكبير مالك بن نبي ﵀.

وفي دراسة لـ"سعاد الحكيم" بعنوان "نحو فلسفة للسلام الإنساني"، شخصت الكاتبة أسباب إخفاق مفاهيم السلام؛ كالمحبة

---

(1) نشر هذا المقال في العدد ٣٦ من مجلة حراء سنة ٢٠١٣

(*) كلية الشريعة جامعة الإمام محمد بن سعود/ السعودية

والتسامح والحوار وقبول الآخر كجزء لا يتجزأ من الذات في ثلاثة أسباب:

السبب الأول: إن مفاهيم السلام بقيت عند الممارسة في إطار فردي نخبوي ولم تمس حياة الجماعة عامة. لا شك في أننا نجد أشخاصًا هنا وهناك وعلى امتداد العالم، يريدون السلام حقيقة، ويتحلون بالتسامح والمحبة، والقدرة على رؤية الآخر في الذات. ولكن هؤلاء الأشخاص لم يستطيعوا -للأسف- أن يشكلوا تيارًا أهليًا قويًا، وظل نشاطهم محصورًا في نخبة طائفية أو قلة فكرية.

السبب الثاني: إن مفاهيم السلام كما هي مطروحة اليوم، لا ترتكز على أسس سليمة، لأنها -كما يبدو- تسوَّق كسلع استهلاكية تهدف إلى الحصول على السلام من طرف واحد، تدعوه إلى التسامح اللامشروط المرتكز على المحبة فقط، والتي يبدو أنها مفقودة عند قطاع كبير في الطرف الثاني. إن السلام الحقيقي يفترض وجود طرفين يتبادلان الاعتراف بحق الكينونة، ويثق واحدهما بالآخر؛ بأن السلام من طرفه لن يعني انمحاء واستلابًا وازْدواجة معايير... إن لم توجد هذه الإرادة الصادقة من الطرفين، يظل السلام في إطار أقليات خيّرة وواعية، ولا يخرج إلى بدن الجماعات البشرية.

السبب الثالث: إن مفاهيم السلام هذه (المحبة والتسامح وقبول الآخر) تعاني من التوقف عند مرحلة تنظيرية تتسم بالفردانية التي لا يربطها رابط خارجي، ولا نسق داخلي يجمعها... لكأنها تجمع على هيئة "باقة زهر" يقدمها إنسان خيّر محبّ إلى الإنسانية. لذلك

نحن أحوج ما نكون إلى توظيف هذه المفاهيم المفردة في منظومة فكرية تساعد كافة الناس -وليس النخبة فقط- على الرؤية والاقتناع وبالتالي الممارسة؛ أي نحن نحتاج لأن نخرج من مرحلة تنظيرية خطابية تبريرية عاطفية، إلى مرحلة أشد اتساقًا تجمع هذه المفاهيم المفردة، لتكوّن منها كلا متسقًا منتظمًا، لتؤسس منها فلسفة يقتنع بها عامة الناس، ولا تظل في حدود فردية عالية الروحانية.

وإذا كانت الكاتبة قد لامست إشكالية مفهوم السلام وأبرزت تلك الأسباب الثلاثة، فإن مفهوم السلام غني بدلالاته التي جرى الحديث عنها، كي يحقق البعد الحضاري الإنساني، بالعودة إلى الدين والأخلاق في إطار ثقافي يوازن بين الـ"أنا" والآخر، والفطري والمكتسب، والذاتي والموضوعي، والفردي والجماعي، والمحلي والإقليمي والعالمي.

وتتفق الكاتبة "سعاد الحكيم" مع كبار مفكري السلام العالمي، في أهمية ارتكاز مفهوم السلام على الدين؛ فتحت عنوان "بناء إنسان الإنسانية"، قالت: "من أجل إنشاء فلسفة للسلام، لابد -بالإضافة إلى كل ما تقدم- من التفكر حول هوية الإنسان الذي يحقق السلام الكوني. وجوابًا على الطروحات الداعية إلى بناء إنسان مدني، أقول إن القوانين المدنية تجعل الرّادع خارج الإنسان، وبالتالي ما إن تغيب سلطة الرادع الخارجي حتى يظهر توحّش الإنسان وهمجيته، على حين أن القوانين المصاغة -انطلاقًا من الأديان- يستجيب لها رادع داخلي، وتحقق النظام -إلى حد ما- في الداخل والخارج... إذن

فمن مصلحة البشرية أن تدافع عن تكوين كائن مؤمن متقٍ أخلاقي... وهذا مشروع عملاق لا يقوم به طرف واحد أو أبناء دين واحد منفردين، بل لابد من تكاتف عالمي في هذا الإطار بين الشعوب وقيادتها الروحية. وفي هذا السياق تتفق الكاتبة مع المصلح الديني الألماني "هانس كينغ"، حين أطلق شعار "لا سلام بين الشعوب من دون سلام بين الأديان".

وتستمر الكاتبة في حديثها قائلة: "حتى لا يكون كلامنا على "الرادع الداخلي" جزءًا من "مدينة فاضلة" لا نرى مقدمات تحققها في أفق تاريخنا المنظور... نحصر الحديث فيما هو مباح ونقول إن كينونة الإنسان وحدة لا تتجزأ، وتعبر هذه الوحدة عن نفسها في جميع تجلياتها... فلو استطعنا -مثلاً- أن نصلح أداء الإنسان على مستوى تجل من تجليات ذاته، لربما ينعكس هذا الإصلاح على الكينونة نفسها؛ واستنادًا إلى قاعدة الوحدة الذاتية للإنسان، أي إذا استطعنا أن نعدل من الأداء العائلي للإنسان، لربما استقام في الوقت نفسه أداؤه الاجتماعي وكذا أداؤه على صعيد الإنسانية عامة. ونضع بين يدي آفاق الحوار، ما نرصد من تجليات للكينونة الإنسانية في الجهات الأربع، مقتنعين أنه لا سلام بين الناس ما لم يتحقق السلام على المستويات الأربعة لتجلي كينونة الإنسان وهي: السلام الداخلي، السلام الاجتماعي، السلام الأممي الكوني.

فالإنسان وحدة لا تتجزأ، والكون أيضًا يترابط بوحدة وجودية تجعل له هيئة تتلاحم لأولي البصائر في كافة المجتمعات".

موقف الإسلام من السلام

لم يكن موقف الإسلام من السلام بدعًا، بل جاء مصدقًا لما بين يديه من الأديان التي سبقته. فقد أثبتت الدراسات أن الأديان قاطبة، وخاصة الديانات الشرقية القديمة (الهندية والبرهمية والبوذية والكنفوشيوسية، والطاوية) والديانات السماوية الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلام) دعت جميعها للسلام، وجعلته الأصل في العلاقات، وعظّمت من شأنه، وأنها جميعًا "تأمر بالعدل والإحسان وتنهى عن الظلم والعدوان، وكلها تسوي في المعاملة الدنيوية بين أتباعها وبين أعدائها". فلم يقع -على سبيل المثال- من الديانة الهندية (البرهمية) في تاريخها أيّ اضطهاد، كذلك البوذية التي لم تعتد قط على أحد من مخالفيها، فقد كانت مبادؤها تحملها دومًا على سعة الصدر لأي خلاف، وأنه لا مشكلة لديها مع السلام البتة. وكذلك الديانة المسيحية ذات الطابع المتسامح الذي حملها على التواضع والسلام، بل الخضوع والاستسلام، فقد كان من شعاراتها "أحب جارك كما تحب نفسك"، و"من ضربك على الخد الأيمن فامدد له الخد الأيسر"، كذلك أوجبت على من يسفك دم أحد الطرد من حظيرة الدين.

كما أثبتت الدراسات كون السلام، من المبادئ الأساسية في الديانتين اليهودية والإسلام، وأنه لا يوجد مثال واحد أباح البدء بالاعتداء على الطوائف الأخرى، سواء كان ذلك لمقاصد دينية أم لأغراض سياسية، بل الواقع على العكس من ذلك، أنهما احتملا الاضطهاد أمدًا طويلاً قبل الإذن لأتباعهما باتخاذ القوة للدفاع عن حياتهم وعن حريتهم في اعتناق الحق والدعاء إليه.

أما الإسلام فقد تميز في موقفه من السلام، بكون اسم السلام نفسه واسم الإسلام نفسه، يرجعان لأصل واحد ويشتركان في كثير من الدلالات والاشتقاقات اللغوية بما فيها من سعة وامتداد وعمق. ثم إن الإسلام اتخذ من التدابير ما يكفل أن يكون السلام جوهر الإسلام، وظلَّه وأساسَ معتقده، وأهم مبادئه، وركائزه العقدية، وقيمه الأخلاقية والتشريعية الكبرى، واختاره أن يكون تحيتَه.. فبالسلام البدء والنهاية والتواصل في مختلف دوائره على صعيد النفس والكون والحياة. ولإيضاح تلك التدابير، يجري الحديث عنها في الآتي:

- التدابير التربوية الثقافية التي تعتمد على السلوك والأخلاق.
- التدابير التشريعية المقننة.
- التدابير الملائمة لسنن الكون والنفس والحياة.

فأما التدابير التربوية الثقافية، فقد استطاع الإسلام أن يغرس السلام في داخل نفس الفرد المسلم بالتربية والثقافة والسلوك والأخلاق. فقرر أولاً أن الناس من أصل واحد، وأنهم جميعًا أبناء رجل واحد هو آدم عليه السلام الذي جعله الله سبحانه وتعالى خليفة له في الأرض، وسخّرها له، وكرّمه وفضّله على كثير ممن خلق، وأسجد له ملائكته، وعلمه الأسماء كلها، ثم أورث تعالى بني آدم تلك الخلافة، وتحمّلوا الأمانة، واضطلعوا بالمسؤولية... وهذا يوجب عليهم أن يستشعروا الكرامة والعزة، وأن تكون علاقاتهم سليمة، وضمائرهم نقية، وأن يتوجهوا لمن كرمهم واستخلفهم بالعبادة وإفراده بالتوحيد، وبخاصة

أنه ﷻ قد حدد الغاية من خلقهم وعلة وجودهم فقال: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾(الذاريات:٥٦).

ولكون الأب واحدًا، والرب واحدًا، فإن "مقتضى اتحاد الأصول وتوحيد المعبود، تآلف الفروع وأخوة العابدين وتعاونهم جميعًا على القيام بواجب الرحم وبحق المعبود الذي يغضبه أن يبغي بعضهم على بعض.

ثم جاء النداء مكررًا في القرآن الكريم في آيات كثيرة بوصف البنوة لآدم، وبالنداء بوصف الإنسانية، وأنها موضع التكريم. كذلك حثت الآيات والأحاديث على مكارم الأخلاق، وأن تكون أساسًا للمعاملة: ﴿**وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾(فصلت:٣٤).

وفي الحديث: "**خالِقِ الناس بخُلُق حَسَن**" (رواه الترمذي)، وورد: "الدين المعاملة". وجاء كذلك الأمر بالعفو والمخاطبة بالسلام، وقال تعالى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ۞ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾(الأعراف:١٩٩-٢٠٠)، ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا**﴾(الفرقان:٦٣). كما جعل الإسلام السلام تحية الصالحين، وبه يحيون أنفسهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿**وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ**﴾ (يونس:١٠)، وقال: ﴿**إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾(الأحزاب:٥٦)، وقال: ﴿**فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً**﴾(النور:٦١).

ونهى عن دخول بيوت الآخرين، إلا بعد الاستئذان والاستئناس والسلام على أهلها: ﴿**لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا**﴾(النور:٢٧).

والآيات في ذلك من الكثرة بمكان، كذلك ورد السلام في القرآن الكريم تحية لجميع الرسل: ﴿**سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ**﴾(الصافات:٧٩)، ﴿**سَلاَمٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ**﴾(الصافات:١٢٠)، ﴿**سَلاَمٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾(الصافات:١٠٩)، ﴿**وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ**﴾(الصافات:١٨١). وكان السلام دعوة عيسى عليه السلام: ﴿**وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا**﴾(مريم:٣٣)، وناهيك عن كون السلام اسمًا من أسماء الله تعالى: ﴿**هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ**﴾(الحشر:٢٣)، وسميت الجنة التي هي موعود الله لعباده المؤمنين "دار السلام": ﴿**لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾(الأنعام:١٢٧)، وأنه تعالى يدعو إلى دار السلام: ﴿**وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾(يونس:٢٥).

وبهذا يتضح ترسيخ الإسلام لمبدأ السلام و"أن إشاعته تعالى للسلام في هدايته لعباده على هذا النحو، ما كان إلا ليغرس في سويداء قلوبهم حب السلام والعمل للسلام، وأن يعملوا جهدهم في التحلي بالسلام والدعوة إليه وإفشائه بين العباد. فإذا عُلِم أن هذه الآيات وما تحمله من هدي وتوجيهات تطرق سمع المسلم في صلواته ودعواته، وأنها تصبغ علاقتها الخاصة والعامة الحاضرة والمستقبلة في الدنيا والآخرة، وأنها تدخل في معظم

تفاصيل حياته وفي صميمها اتضحت مقاصد الإسلام من ذلك، وتبين أنه حوّلها إلى ممارسة بالسلوك والتهذيب والتربية والتعليم والتعود والمران، حتى غدت ثقافة ذات بُعد إنساني حضاري متجذر.

أما التدابير التشريعية المقننة، فقد جعل الإسلام الأصل في العلاقات هو السلم، فالسلم أمر الله، قال تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**﴾(البقرة:٢٠٨). وقد تضمن الأمر به التعريض بما يقابل السلام وهي الحرب، وأنها اتباع لخطوات الشيطان على أن الحرب إن نشبت في ظروف وملابسات استثنائية -لا يوجدها الإسلام قطعًا وإنما يفرضها أعداؤه عليه- فإنها حينئذ تقدر بقدرها وتُحَدّ بحدود وتحاصر بضوابط وآداب شرعية، ومع ذلك فإن الإسلام يأمر بأن يكون السلم هو الخيار، وأن يُجنحَ إليه إذا جنح إليه الطرف الآخر: ﴿**وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ**﴾(الأنفال:٦١).

كذلك جاء النهي عن القتال بعد نشوبه إذا ألقى العدو إلى المسلمين السلم، قال تعالى: ﴿**فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً**﴾(النساء:٩٠).

كتبت الدكتورة أميمة بنت أحمد الجلاهمة تحت عنوان: "السلام في علاقات المسلمين بغيرهم"، بعد توضيحها لطابع الإسلام السلمي في علاقاته مع الآخرين، بأن ذلك: "لا يعني تهاون المسلمين في ردّ أي عدوان وُجِّه للمقدسات والأوطان، ولثروات الأمة البشرية منها والمادية على السواء. فالرد في هذه الحالات

يكون واجبًا شرعيًّا كما هو واجب وطني. وحال المسلم في هذا الردّ كحال كل الأمم التي تقف صفًّا واحدًا في وجه أي اعتداء يَطال مقدساتها وأرضها وعرضها. ولكن المسلم في كل أحواله، ومهما استفظعت الأسباب الموجبة للحرب والمقاومة المسلحة، لا يمكن أن يكون ذلك توجيهًا نابعًا من اجتهاد شخصي ينبري للقيام به من تلقاء نفسه. فللحرب في الإسلام نظم وأصول ملزمة لا يجوز للمسلم الخروج من خلالها عن طاعة ولي الأمر وإجماع الأمة. فالحرب في الإسلام قرار دولة لا قرار فرد مهما علا شأن هذا الفرد في أمته".

أما التدابير الملائمة لسنن الكون والحياة والنفس الإنسانية، فإنها ذات نسق وسياق يؤكد إعجاز الإسلام، وتؤيده الاكتشافات العلمية والدراسات المتعمقة في فقه التاريخ والحضارة والدراسات الإنسانية... والحديث عن ذلك لا يمكن اختصاره في هذا المقال، إنما أكتفي بالإشارة إلى كون السلام في الإسلام، ينداح في دوائر بدءًا من سلام الفرد مع نفسه، إلى سلامه مع أسرته ومحيطه القريب، إلى سلامه مع محيطه وبيئته بموجوداتها وتنوعاتها الثرية من الكائنات الحية والنباتات المختلفة في البر والبحر والجو. وما تمارسه المنظمات الحديثة التي تصدت لهذا الجانب تحت مسمى "السلام الأخضر"، تتفق مع ما سبق إليه الإسلام من العناية بهذا الجانب واشتماله بتشريعاته وحمايته للحياة الفطرية وإنمائها، وأن مفهوم السلام وفلسفته في الإسلام، شكلت دائرة واسعة تحيط به وتحافظ على التوازن البيئي بوعي وإدراك حضاريين. فالسلام في

الإسلام مفهوم أصيل وفلسفة عميقة يفي بمتطلبات البشرية قاطبة، كي تعيش حياة كريمة وتنعم بالأمن والاستقرار، في ظل أخلاقيات تطبع النفوس بروح التسامح وحسن التعامل مع المخالفين في المعتقد من غير تعصب لمعتقد ولا حقد ديني يحمل على الحيف والظلم ومن غير تطرف ولا عنف، وإنما تقوم العلاقات بين المسلمين وغيرهم، على البر والعدل والإحسان والتوسط في المواقف والتوازن بين التجاذبات. وبذلك حقق الإسلام في موقفه من السلام البُعد الإنساني الحضاري الإستراتيجي. ولضمان أن تكون السيادة للسلام حاضرًا ومستقبلاً، فإنه ينبغي اعتماد الإصلاح السياسي بدعم الديمقراطية وفسح المجال للنقد والشفافية واحترام التشريعات الإليهة، وتقييد التقنينات التي تميلها متطلبات الواقع بالأخلاق الحميدة، وأن تصبغ بالمبادئ الإنسانية من خلال علماء الدين وفلاسفة الإنسانية وحكمائها والنخب الثقافية. وإذا كانت الأديان -وآخرها الإسلام- هي المؤسسة للسلام على النحو الذي جرى الحديث عنه، فإن على قادة الفكر والسياسة ورواد السلام، أن يفسحوا المجال للتثقيف والتهذيب الديني، وبخاصة للثقافة الإسلامية بما تنطوي عليه من خصائص وسمات إنسانية وأطر عالمية من حقها أن تتفاعل مع الثقافات الأخرى في أجواء من السلم والمسالمة بعيدًا عن روح العداء، وأن يُعْلَم -كما قرَّر علماء الدين ومفكرو العصر- "أن الأديان كلها، بدلا من أن تكون سبب نزاع وخصام في شؤون هذه الحياة، -وهي على ضد من ذلك- تنادي بالائتلاف والوئام، وأن السبب الحقيقي في الخصومات هو

بالعكس من ذلك، إنما يحدث بتعمد الانحراف عن الدين، وأن كل طائفة تثير نار الحرب باسم الدين، فهي كاذبة في دعواها الانتساب إلى دينها، وأن العلاج الناجع لآلام الإنسانية الحاضرة، هو أن يُعنى رجال كل دين عناية خاصة بالجانب الخُلقي العام منه، فينمّوا في أتباعهم عاطفة الأخوة الإنسانية باسم الدين نفسه.

كما ينبغي العمل باسم السلام ومن أجل السلام على معالجة ما آل إليه السلام في النظم البشرية الحديثة، حيث اتخذته الأمم المتقدمة والمتخلفة شعارًا لمضامين أخرى؛ فأما الأمم المتقدمة فترفعه في بعض الأحوال شعارًا لتعايش الثقافات، بهدف تثبيط همم الأمم الأخرى وتخديرها تمهيدًا لغزوها، وأما الأمم المتخلفة فترفعه بسبب الروح الانهزامية والضعف.

كما بدأ الحديث بمقولة مالك بن نبي، ينتهي وبالمطالبة التي طالب بها يُطالب؛ إذ يقول: "فالثقافة الحضارية ينبغي أن تُعطِي لفكرة السلام شخصيتَها الحقيقية بأن تضعها منذ الآن تحت ضمان المبادئ".

الإسلام والتفاعل بين الحضارات[1]

د. رقية أهجو[*]

الحوار بين الحضارات والثقافات، بات ضرورة ملحة للعيش في عالـم آمن ومسـتقر. فمَشـاهد العنـف والفزع العالميـة، لا تُبقي مكانًا لحياة إنسانية ذات معنى، كما هو متوقـع في الأذهان والفكر البشري السـوي المنطلق من ثوابت لا متغيرة؛ هي بمثابة سـنة كونية لا تقبل التحويـل، ممـا جعل مـن موضوع الحوار بين الحضـارات والثقافات ليـس فقط ضرورة في المسـاحات الجغرافيـة، بل بات ضرورة ملحة حتى في المساحات المعرفية.

ونحـن اليـوم في حاجة ماسـة لأن نجيب على كل الاسـتفهامات العميقة والواقعية التي يطرحها محيطنا، وأن نرصد مسيرة التحولات كما ينبغي. فالعالم اليوم متعطش للسلام والصداقة والحرية والعدالة الاجتماعيـة، ويصـر علـى أن يحصـل علـى حريته وحقوقه الإنسـانية المشـروعة التـي تَكفلهـا لـه القوانيـن والضوابـط السـماوية والعرفية.

[1] نشر هذا المقال في العدد ٥٥ من مجلة حراء سنة ٢٠١٦

[*] كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط / المغرب.

فالسلام والحرية والعدالة لا تنال بالحرب والتعنت، والميز العنصري، وبث روح التفرقة والشتات بين بني البشر. والسلام الذي يتحقق بالحرب، هش دائمًا وغير متين، أما السلام القائم على العدالة والإنصاف والحوار والمنطق، فهو السلام الحقيقي الدائم.

وحين العودة إلى القرآن الكريم، نجد أن الرسالة التي تخاطب الإنسان -كل إنسان- أينما كان وفي أي زمان كان، يتردد خطابها بعبارة "يا أيها الناس"، وهي رسالة عالمية تخاطب الإنسان كإنسان وكل إنسان، دون ميز ولا تحيز ولا إعلاء لطرف دون آخر.. فحياة الإنسان في منظورها، تعادل حياة كل البشر. فمثل هذه الرسالة تستطيع -دون شك- أن تكون سندًا قويًّا للحب والسلام، وإلا فمن الواضح جدًّا أن الإعراض عن الحوار، وإخماد صوت المنطق وسط ضجيج أصوات المدافع والدبابات، لا يستطيع أن يحقق أمنًا ولا استقرارًا ولا سلامًا.

هذا وقد يلعب الخطاب الديني دورًا فعّالاً في الدفع بعجلة الحوار الحضاري نحو أفق أوسع وأشمل لمناحي الحياة البشرية، ويساعد في خلق أرضية صلبة ومتينة تدعم الحوار بين الحضارات على أسس من الاحترام والتقدير المتبادل بين سائر الحضارات، وإن كانت مختلفة -وحتى متضادة- في المبادئ والمرتكزات والمنطلقات والأهداف، إلا أن الخطاب الديني يعمل على تقريب وجهات النظر، بعيدًا عن الحساسية التي قد تتلبس بها حضارة ما في علاقتها بباقي الحضارات البشرية.

وتجدر الإشارة أول الأمر إلى أن نقطة البداية في إقامة حوار حضاري على أسس متينة وسليمة، تكمن في العودة إلى إصلاح الذات وهي اللبنة الأساسية في بناء وإقامة حوار حضاري فعّال، إلى جانب التمسك بكل قيمنا الأصيلة وبديننا الحنيف الذي يدعو إلى القوة والترابط والتراحم والحب والتعاون وإعمال الفكر والإبداع، بعيدًا عن التشنجات المغرضة.

وإذا ما استطعنا أن نقيم حوارًا ذاتيًّا ناجحًا، إذ ذاك سنكون مؤهلين للتحاور مع الآخر وفق المبادئ التي خطها لها ديننا الذي يحض على الحوار والتفاهم والتعارف والتعايش السلمي، يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾(الحجرات:١٣)، وفي هذه الآية الكريمة خطاب يشمل البشرية جمعاء دون تفاضل ولا ميز؛ يدعوهم فيها الله تعالى إلى التعارف ونبذ الفرقة والبعد عن كل ما من شأنه أن يبث روح التفرقة والشتات بين البشر. ويقول تعالى أيضًا: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾(النحل:١٢٥)، وهذه الآية من عظام الآيات التي تعقد للحوار البناء؛ ففيها دعوة صريحة إلى تقبل الآخر، وسعة الصدر ورحابته والترحيب بالاختلاف، ففي قوله "جادلهم بالتي هي أحسن" دعوة صريحة إلى التناظر والجدال بأحسن الأوجه وأيسرها برفق ولين وخطاب حسن، كما قال تعالى: ﴿**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**﴾(العنكبوت:٤٦)، فأمر الله بلين الجانب كما أمر موسى وهارون ﷺ حينما بعثهما إلى فرعون فقال: ﴿**فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾(طه:٤٤).

فديننا الحنيف يدعو إلى الحوار، والتعايش الحضاري، والتلاقح بين مختلف الحضارات في لين ومحبة وسلام، لأن الحوار في الأصل هو من أجل فهم الذات أولاً، ثم فهم الآخر والتفاعل معه، وليس الخوض في صراعات مقيتة وعقيمة لا تفضي إلا إلى التفرقة ونشوب النعرات بين بني البشر، وانتشار الأحقاد التي لم يستفد منها الإنسان في شيء.

وبقدر ما تعظم الحاجة إلى حوار جدّي بين الثقافات والحضارات لإقامة جسور التفاهم بين الأمم والشعوب ولبلوغ مستوى لائق من التعايش الثقافي والحضاري، تقوم الضرورة القصوى لتهييء الأجواء الملائمة لإجراء هذا الحوار، وإيجاد الشروط الكفيلة بتوجيهه الوجهة الصحيحة. وذلك يتأتى بمعرفة الذات من أجل معرفة الآخر؛ "فالانعزال والتقوقع والانغلاق على الذات في عالم اليوم الذي تحوّل إلى قرية صغيرة بحكم التطور التقني الهائل في تكنولوجيا الاتصال، أمر مستحيل، كما أن الانسياق وراء الدعوة إلى حضارة عالمية واحدة، هو بحد ذاته عملية تكريس لهيمنة الحضارة الغربية، وهو طريق التبعية الحضارية الذي يفقدنا خصوصيتنا الحضارية، ويحولنا إلى مجرد هامش لحضارة الغرب"[٢]، وتبقى الدعوة إلى حوار الحضارات، التعبير الأسمى الذي يحقق الذات ويكفل الانفتاح على الآخر، ويثمر مستوى لائقًا من التعايش الثقافي والحضاري المنشود.

---

[٢] مستقبل العالم الإسلامي، سلسلة دورية يصدرها مركز دراسات العالم الإسلامي بمالطا، العدد:٩، السنة ١٩٩٣/٣، ص:١٤٤.

وتعتبر مسألة تجديد الخطاب الديني، من ضمن الأساسيات التي يجب ألاّ نغفل عنها، إذ من خلاله يمكن إيجاد حلول بديلة لمستجدات يحتمها التطور المعاصر لكل مناحي الحياة. وبتنا اليوم مطالبين -أكثر من أي وقت آخر- بتجديد خطابنا الديني، تماشيًا وخدمة لإقامة الحوار بين حضارتنا الإسلامية وباقي الحضارات، وأن نتجاوز التقليد والطبع والنسخ من الحضارة الغربية.

ويعتبر عامل إقفال الاجتهاد في الفقه الديني، من أبرز الأسباب التي أفرزت خطابًا دينيًا "يرتكز على النقل والتقليد، ويغيّب العقل ويهمّشه"[٣]. والصحيح أن الاجتهاد لم يتوقف قط، بل كان محصورًا في حقبة توالت وتعددت فيها الأزمات، إلا أن لا يعني اندثاره اليوم وعدم حاجتنا إليه كما كان مهمًّا في الخوالي. ولم يكن الاجتهاد مهمشًا قط عند الخلف كما عند السلف.

وبالعودة إلى موضوعنا الرئيس، لا بد وأن نشير إلى مسألة غاية في الأهمية، وهي أن التفاعل الحضاري لا يمكن أن يتم ويتحقق إلا عن طريق حوار بناء وفعّال بين الأديان، "وقد سبق لعالم اللاهوت الألماني هانس كينغ (*Hans Kung*) أن قال: لا حوار بين الحضارات بدون سلام، ولا سلام بدون حوار بين الأديان، وإذا كان القرن الواحد والعشرون هو قرن الأديان بامتياز كما قال المفكر والكاتب الفرنسي أندريه مالرو، فإن الدين قد أضحى منبع الثقافات وملهمها، ومنه تتأتى معظم خصوصيات الشعوب ومقوماتها"[٤]

[٣] نقد الخطاب الديني، لنصر حامد أبو زيد، الطبعة الثانية ١٩٩٥، مكتبة مدبولي القاهرة، مصر، ص:١٨.

[٤] الإسلام وترسيخ ثقافة الحوار الحضاري في عصر الصحوة، للدكتور حسن عزوزي، ص:٢.

والإسلام -كدين وحضارة- عندما يدعو إلى التفاعل بين الحضارات، فإنه "ينكر المركزية الحضارية التي تريد للعالم حضارة واحدة مهيمنة ومتحكمة في الأنماط والتكتلات الحضارية الأخرى.. فالصحوة الإسلامية المعاصرة تسعى إلى أن يكون العالم منتدى حضارات متعدد الأطراف، ولكنه مع ذلك لا يريد للحضارات المتعددة أن تستبدل التعصب بالمركزية الحضارية القسرية، إنما يريد لهذه الحضارات المتعددة أن تتفاعل وتتساند في كل ما هو مشترك إنساني عام"[٥].

والدين الإسلامي وإن كان آخر الأديان السماوية وخاتم الرسالات الربانية إلى بني البشر، إلا أنه ينكر تلك المركزية الحضارية. وفي روح دعوته لا يسعى إلى اعتبار الحضارة الإسلامية هي الحضارة المركزية تلغي باقي الحضارات، وتجبر العالم على التمسك بدين واحد، إنه ينكر هذا القسر عندما يرى في تعددية الشرائع الدينية سنة من سنن الله تعالى في الكون، قال تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾(المائدة:٤٨).

إن دعوة الإسلام إلى التفاعل مع باقي الديانات والحضارات، تنبع من رؤيته إلى التعامل مع غير المسلمين الذين يؤمنون برسالاتهم السماوية. فعقيدة المسلم لا تكتمل إلا إذا آمن بالرسل

[٥] (٤) العطاء الحضاري للإسلام، لمحمد عمارة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٧، دار المعارف، القاهرة، ص:١٢١.

جميعًا، يقول تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(البقرة:٢٨٥).

بيد أنه لا يجوز أن يفهم هذا التسامح الإنساني الذي جعله الإسلام أساسًا راسخًا لعلاقة المسلم مع غير المسلم، على أنه "انفلات أو استعداد للذوبان في أي كيان من الكيانات التي لا تتفق مع جوهر هذا الدين. فهذا التسامح لا يلغي الفارق والاختلاف، ولكنه يؤسس للعلاقات الإنسانية التي يريد الإسلام أن تسود حياة الناس.. فالتأكيد على الخصوصيات العقائدية والحضارية والثقافية، لا سبيل إلى إلغائه، ولكن الإسلام لا يريد لهذه الخصوصيات أن تمنع التفاعل الحضاري بين الأمم والشعوب والتعاون فيما بينها"[٦].

ولعل أبرز أوجه تأثير الخطاب الديني في تفعيل آليات الحوار بين الحضارات، أن الحضارة الإسلامية أخذت عن الحضارات السابقة، في عدة ميادين في عهد الرسول ﷺ وفي عهد الصحابة والتابعين، لم ينبذوا كل شيء، كما أنهم لم يأخذوا أي شيء. فقد اقتبست الحضارة الإسلامية من ثقافات الأمم والشعوب التي احتكت بها، وصَهَرت حصيلة هذا كله في بوتقة التفاعل الحضاري، فكانت حضارة الإسلام ولا تزال مثالاً نادرًا للتفاعل بين الحضارات.

---

[٦] الأمة الإسلامية في مواجهة التحدي الحضاري، لعبد العزيز بن عثمان التويجري، سلسلة المعرفة للجميع، رقم، الرباط ١٩٩٩، ص:٧٤.

إن التعايش هو سمة مميزة للإسلام، وملمح جامع يطبع كل جوانبه التشريعية والسلوكية، إنها إحدى أهم قيم هذا الدين وصفاته المميزة التي تعني الحرية للبشر كافة، والمساواة بينهم من غير تفوق جنسي أو تمييز عنصري.

إنه ليس هنالك ثمة ما هو أبلغ وأوفى بالقصد في الدلالة على عمق مبدأ التعايش في الإسلام من الآية الكريمة التي يقول فيها تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾(آل عمران:٦٤)، ذلك أن المساحة المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب، مساحة واسعة. وإذا كان الإسلام قد جعل في قلوب المسلمين متسعًا للتعايش مع بني الإنسان كافة، ففيه من باب أولى متسع للتعايش بين المؤمنين بالله. ويشهد التاريخ أن معاملة المسلمين لغيرهم في البلاد المفتوحة، كانت مثالاً رائعًا من التسامح لا مثيل له في التاريخ.. ولعل من أكبر الأدلة وأقوى الحجج على قيام الحضارة الإسلامية عبر العصور على أساس متين من التسامح في أسطع معانيه، هو تعايش المسلمين مع أهل الديانات والملل والعقائد في البلدان التي فتحوها خلال قرون متطاولة وعهود مديدة.. ويدل ذلك على أن التعايش مبدأ من المبادئ التي قامت عليها الحضارة الإسلامية، والذي يرمي إلى القضاء على أسباب التوتر واضطراب حبال الأمن والسلام وعدم الاستقرار.

فالخطاب الديني الإسلامي، يحمل في طياته معالم نبيلة وسمات كبرى للتعايش ونشر المحبة وإحلال السلام بين البشرية أجمع من خلال الحوار بين الحضارات والأديان، ومن أوجه ذلك أنه لا يرغم أحدًا على الدخول في الإسلام، ولا يدعو إلى الدخول في الحروب إلا للضرورات القصوى. وليس بدعًا -إذن- أن يكون الإسلام -بهذا التفرد- دين التعايش السلمي وليس دين الصدام الحضاري وكم يُتَّهم بذلك. فهو آخر الأديان، أي كلمة الله الأخيرة، وقد استطاع أن يقيم أمة عاش في كنفها المسلمون وغيرهم، وعاشت هي في علاقات مع غيرها أساسها التعارف، مما جعل -ويجعل- للإسلام رسالة تبدأ من التوحيد وتنتهي بالدعوة إلى الوحدة التي يتعايش داخلها كل البشر، تحقيقًا للعدل الحضاري والمساواة والكرامة الإنسانية، بعيدًا عن أي لون من ألوان الصراع وفي منأى عن أي مظهر من مظاهر الصدام الحضاري الذي يستحيل أن يكون الإسلام يحمل شيئًا من بذوره.

الإسلام والسلم العالمي[1]

أ.د. الشريف حاتم العوني[*]

يأتي الحديث عن "الإسلام والسِّلم العالمي" في أحد أهم الأوقات، حيث إن العالم بعامة والعالم الإسلامي بخاصة، والشرق الأوسط منه على وجه الأخص، يمر بتأزّمٍ خطير، وبخطوات متسارعة نحو اشتداده وتَمدُّدِه، وقد طالت آثارُه أقطارًا بعيدة عن الشرق الأوسط، في الغرب وغيره. مما يُوجب السعيَ الجادَّ لإيجاد حلول حول هذا التأزم ومحاولة تخفيفه، حتى لا يُشكِّل خطرًا موقوتًا مُؤْذِنًا بالانفجار في أي لحظة. وهذا الأمر يستدعي معرفةَ أسباب هذا التأزُّم، ومحاولةَ البحث الجاد الصادق المنصف في حصرها، دون إغفال سببٍ منها على حساب سبب آخر، كما نشاهده في أغلب الأطروحات: فالغرب كثيرًا ما يجعل المشكلة شرق أوسطية بحتةً، أو إسلامية (وكأنها مشكلة المسلمين مع الإسلام نفسه)، ويتبرّأ من أي دور في تأجيج نارها، والعالم الإسلامي كثيرًا ما يتبرّأ منها، بدعوى أنه أول المصطلين بنارها.

---

[1] نشر هذا المقال في العدد ٥٥ من مجلة حراء سنة ٢٠١٦

[*] كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى / المملكة العربية السعودية.

والحقيقة أن أي بحث صادق منصف لا يمكن أن ينطلق من مبدأ تبرئة الذات، بل من منطلق رؤية الحقيقة بكامل تفاصيلها ولو اتهمت تلك الرؤيةُ الذات.

والحقيقة الأهم، أنه بغير هذا البحث الصادق المنصف، لن نصل لأي حل. فلا العالم الإسلامي بالغبيّ لكي تنطلي عليه التُّهم الجزاف التي لا واقع لها، ولا الغرب بالقوة التي يمكنه معها أن يلفتنا عن ثوابت ديننا لمجرد أنها لا تناسبه.. ولا الغرب بالأحمق ليصدّق أن بعض المسلمين بُرآءُ تمامًا من أن يكون لهم دور في صناعة هذا الاحتراب، ولا نحن (معشر المسلمين) بالذكاء الكافي لنخفي حقيقة تقصيرنا (دولاً وعلماء ومفكرين) في مواجهة هذا التأزّم بالقوة الكفيلة بتجفيف منابعه الفكرية أولاً، وبقية منابعه ثانيًا.

ولست -في الحقيقة- مع من يُلقي اللوم على الغرب أكثر، بحجة أنه الأقوى والأقدر على تصحيح الواقع، وإن كنت قد ألقي عليه اللوم أكثر من جهةٍ أخرى، وهو إذا ما استطعت أن أُثبت دوره الفعلي في تأزيم الواقع، وإذا أَثبتُّ أنه أكبر من أي دور.

نعم لست مع من يُلقي اللوم على الغرب أكثر بحجة أنه الأقوى؛ لأننا إذا كنا -معشر المسلمين- قد شاركنا -بوجهٍ ما- في تشكيل هذا الواقع، فنحن أيضًا ملومون، وسيكون لومنا أكبر من وجه، لأن المشكلة مشكلتنا، ونحن أولى من سعى إلى تصحيحها. ولا يمكن أن يكون غيرنا ملومًا أكثر منا -من هذا الوجه- ما دمنا نعترف بوجود خلل لدينا لم نصلحه في أخطاء تصوراتنا عن بعض جوانب ديننا،

وفي القيام بعملية تصحيح لبعض اجتهادات علمائنا التي جانبت الصواب وكانت سببًا من أسباب هذا التطرف والغلو الذي نشاهده.

إنني أُومِن أنّ أيَّ دينٍ لم تحرفه العقولُ الضعيفة ولا الأنفس المريضة، سيكون داعيًا للرحمة والعدل والسماحة والتعايش، سواء أكان دينًا صوابًا في أصله -وهي الشرائع الربانية التي نزلت على الأنبياء عليهم السلام كاليهودية والنصرانية والإسلام- أم كان دينًا باطلاً وضعيًّا؛ لأن حكمة العقلاء ومصالح البشر، سوف تصقله ليكون حكمةً بشرية تنشد الرحمة والعدل حسب قدرتها البشرية.

هذا ما أُومن به، ويصدقه واقع الأديان. ولا تنحرف الأديان عن ذلك إلا مع تحريفها هدايةَ الله تعالى المنزّلةَ على رُسُله وأنبيائه عليهم السلام، من خلال الفهم الخاطئ للدين أو تحريف نصوصه المقدسة (وهي كتب الله تعالى المنزّلة). أو إذا استولى على وضع قوانين الدين الوضعي غير العقلاء، فابتعدوا به عن حكمة البشر وعقل الأسوياء ورحمة الإنسان الفطرية.

فإذا جئنا إلى الإسلام، وهو الدين الخاتم الذي لا يقبل الله من الناس دينًا سواه: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ**﴾(آل عمران:١٩)، ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾(آل عمران:٨٥).. فإننا نتحدث عن دين كامل، محفوظ كتابه (القرآن الكريم)، مصونة سنة نبيه ﷺ.. فسوف نجد أنفسنا أمام عظمة الرحمة ورسوخ العدالة واتساع السماحة وطمأنينة التعايش.. كما لا نجده في نظام آخر، رغم كونه هو الحق الرباني الوحيد، ويمتلك

من أدلة حَقّانِيّتِه ما يكفي أن يؤمن عليه البشرُ كلُّهم لو اتّبعوا براهينَ الحق وأدلةَ الصدق.

من قواعد الإسلام ومنطلقاته

١- تقرير الإسلام وجودَ الاختلافِ القدريّ بين البشر في الأديان، وأنه خلاف لن يزول إلى قيام الساعة: مما يعني استحالة زوال هذا الاختلاف. والإسلام لا يجيز السعي إلى المستحيل قدرًا؛ لأنه سعيٌ يُكذِّب بالقدر، وتكذيب القدر لا يقع من مسلم.

فكيف يُتصوَّر -بعد ذلك- أن الإسلام يُشرِّعُ أحكامًا وتشريعات -باسم الجهاد أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- لزوال هذا الاختلاف بالكلية، وهو نفسه يقرّر بقاءه القدَري الذي لا يمكن أن يزول بجهدٍ بشري أبدًا؟! يقول الله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾(هود:١١٨-١١٩).

وقد فسّرها الحسن البصري بقوله: "الناس مختلفون على أديان شتى"، وقال مجاهد: "أهل الحق وأهل الباطل". وفسّر الحسن البصري قوله: (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، فقال "للاختلاف خلقهم"، وفسّر الاستثناء في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ**﴾، قال: "أما أهل رحمة الله فإنهم لا يختلفون اختلافًا يضرُّهم". فلم يَنْفِ الحسنُ البصري الاختلافَ كلَّه عن أهل الإسلام، وإنما نفى عنهم الاختلافَ الضارَّ الذي يحرِّفُ عقيدةَ التوحيد، أو يكون به المرءُ خارجًا عن ملة الإسلام.

وقال تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾(الرعد:٣١).

والآية تسأل سؤالاً استنكاريًا، أي: كيف لم ييأس المؤمنون من إيمان جميع الخلق؟! قال ابن كثير في تفسير (أَفَلَمْ يَيْئَسِ): "أي، من إيمان جميع الخلق". وذكر ابن عطية وغيره احتمال الآية لهذا التفسير فقال: "أفلم ييأس المؤمنون من إيمان هؤلاء الكفرة، علمًا منهم أنْ لو يَشاء الله لَهَدى الناسَ جميعًا". ثم بيّن الله تعالى بقاء أهل الكفر معرَّضين لعقوبة الله تعالى الواقعة بهم في الدنيا، أو المذكِّرةِ لهم باحتمال وقوعها بهم؛ حيث يعلمون بوقوعها قريبًا منهم إلى أن تقوم الساعة.. مما يعني بقاء الكفار المخالفين لأهل الإسلام إلى يوم الدين.

٢- عدم جواز الإكراه على الدين: يقول تعالى: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾(البقرة:٢٥٦). وقال تعالى: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ**﴾(الغاشية:٢١-٢٢).

٣- مساواة الإسلام بين البشر مهما اختلفت أعراقهم وألوانهم: ويبدأ ذلك من التذكير بأن البشر جميعًا مرجعهم لآدم وحواء ﷺ، فهم جميعًا من أصل واحد. ولا شك أن تساويهم في الأصل، لا يوجب لعرق منهم فخرًا ولا تعاليًا على عرق، ولا للون على لون.

واعتقاد التساوي بين بني البشر هو أساس الاحترام المتبادل، وأساس إعطاء الإنسان حقَّه الإنساني، مهما اختلف عرقُه أو لونه أو لسانه (لغته) أو بلده.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(النساء:١).

وفي كتاب الله آية عظيمة في المساواة بين بني البشر، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣).

وفي هذه الآية بيان الحكمة من كون الناس شعوبًا وقبائل مختلفة الأعراق واللغات والأوطان، وهي التعارف. ولك أن تقف من هذه الكلمة وقفة طويلة، لتستجلي مغازي هذا "التعارف"، بصيغة المفاعلة (تعارف)، والتي تعني استفادة كل شعب من الآخر، وأن هذا الاختلاف سينفع الجميع بهذا التفاعل المعرفي، مما يعني عدم وجود شعب ينفرد برتبة الأستاذ المعرِّف، وشعبٍ ينزل دومًا إلى مرتبة التلميذ الملَقَّن.. بل الجميع يمارس أستاذيةً وتَتَلْمُذًا في الوقت ذاته وفي أوقات وأعصارٍ مختلفة.

ثم تختم هذه الآية هذا التقرير الإنساني -بكل معنى الكلمة- ببيان سبب التفاضل الحقيقي، وهو "التقوى" بمعناها الشامل للاهتداء بهدي الخالق سبحانه في شؤون الدنيا وعمارتها بالحق، وفي شؤون الآخرة وعمارتها بطاعة الله تعالى وتحقيق العبودية له وحده. فلا تمايز لبشر على بشر بشيء من الأمور الخِلقية غير المكتسبة كالعرق واللون والوطن، إنما يكون تفاضلهم عند الله تعالى

بطاعتهم المكتسبة الاختيارية لله ﷻ لتضع لنا الآية بذلك قاعدة التفاضل الكبرى بين البشر، وأنها لا تكون بمجرّد الأمور الجِبِلّيّة، وإنما بالأمور الاختيارية المكتسبة: أما عند الله تعالى فبطاعته الشاملة لصلاح الدنيا والآخرة، وأما عند الناس في الدنيا فبإصلاحك الدنيا. وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: "**إن الله لا ينظر إلى صُوَركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**" (رواه البخاري).

وفي خطبته ﷺ الشهيرة أيام التشريق بمنى في حجة الوداع، قال ﷺ: "**يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر؛ إلا بالتقوى**" (رواه أحمد).

وقارنوا هذه العقيدة الرسالية التي يؤمن بها جميعُ أتباع الرسل، وهي أن البشر كلهم أبناء آدم عليه السلام بعقيدةٍ تعارض ذلك، مبنية على نظريةِ أو فرضيةِ داروين في التطوّر، إذ تفترض هذه العقيدة تطوّرَ الإنسان من أصولٍ مختلفة من سلالة حيوانية أو سلالات كالقرود. ألا يدخل على هذه العقيدة المبنية على هذه الفرضية أن يكون بعض البشر أرقى أصلاً وأفضل تكوينًا من بعض؟ إما من جهة اختلافهم في الأصل، أو من جهة تَقادُمِ تطوّر بعضهم على بعض، أو سرعة تكيُّفِ بعضهم أسرع من بعض، مما يجعل بعضهم أكثر إنسانية و"أرقى" من بعض؟!

٤- نظرة التكريم للبشرية في الإسلام وتعظيمه لفطرتهم: قال تعالى ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾(الإسراء:٧٠).

وقال تعالى عن الفطرة السوية لبني البشر ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾(الروم:٣٠).

وقال ﷺ: "**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء**" (رواه مسلم).

وما دامت الفطرة البشرية فطرةً خيّرة فاضلة، فالإسلام موافِقٌ لها في أصول المعتقد وتفاصيل الأحكام. ولذلك فقد جعل الإسلام لزوم الإنسان فطرته التي فُطر عليها، دليلاً على خيريّته وعلى سلامة طبعه من الانحراف عن أصله الكريم. ففي حديث الإسراء والمعراج أن النبي ﷺ أُتيَ بقدحين (أو ثلاثة)، في أحدهما لبن، وفي الآخر خمر، (وورد أن في الثالث عسلاً)، فلما اختار ﷺ اللبنَ، قال له جبريل عليه السلام مُثْنِيًا على اختياره هذا: أصبتَ الفطرة.

وفي حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: "**لا تزال أمّتي بخيرٍ** -أو قال: على الفِطرة- **ما لم يُؤخِّروا المغربَ إلى أن تَشتَبِكَ النجوم**" (وراه أبو داود). وتنبهوا كيف زاوج الراوي بين "الفطرة" و"الخيرية"، لتعلموا كيف استقرّ في قلوب المسلمين أن فطرة الإنسان هي الخيرية نفسها.

وهكذا يكون الإسلام -عقيدةً وشرائع- هو الموافق للفطرة البشرية الفاضلة.

ولذلك لا نستغرب إذا كان مصطلح "الإنسانية"، -كلفظ دال على الطبع الكريم، والقيم الرفيعة- مصطلحًا إسلاميًّا بامتياز؛ لأن الإسلام يَعدّ الإنسان مخلوقًا مكرّمًا بأصل خلقته، وأنه وإن تطوّرت حياته، وإن زادت كثيرٌ من معارفه الكونية، وإن تقدمت مكتشفاته ومخترعاته، فلا يعني شيْق من ذلك أنه تطوّر من مخلوق دنيء الطباع، همجي الأخلاق، هزيل القيم، إلى إنسان جديد هو إنسان العصر الحديث. بل الإنسان من أصل خلقته، كريم الطباع، سامي الأخلاق، صاحب قيم راقية.

فإذا كان الإسلام يوجب اعتقاد الخيرية في أصل طبيعة البشر، ويؤكد ذلك بالتكريم الإلهي لهم، وبإحسان خلقهم، وبكون فطرتهم سوية، وأن هذه الفطرة لا تتبدل أبدًا وإنْ رانها ما رانها من أثر البيئة والتعليم الفاسد، فكيف لا يكون الإسلام مستعدًّا غاية الاستعداد للتعايش مع هذا الجنس البشري المكرّم الخيِّر في فطرته وأساس خِلْقته؟!

٥- قدرة الإسلام على استيعاب الإيمان (الإيمان بجميع الأنبياء عليهم السلام): لا يوجد دين سماوي عنده قدرة استيعاب غيره كالإسلام، بل لا قدرة لليهودية أن تستوعب النصرانية والإسلام؛ لاعتقاد اليهود كذب دعوة المسيح ومحمد عليهما السلام، ولا قدرة للنصرانية أن تستوعب الإسلام؛ لتكذيبها بنبوة خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

أما الإسلام فيوجب علينا الإيمان بجميع الرسل، حتى كان ذلك من أركان الإيمان عند المسلمين، التي لا يصح إيمان عبد إلاّ بها.

بل يوجب الإسلام علينا الإيمان بالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وكل كتب الله تعالى، إيمانًا بصحة أصولها لا بالمتبقي منها، والذي طاله التبديل والتغيير والنقص والزيادة.

﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**﴾(البقرة:٢٨٥).

وقال تعالى: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾(البقرة:١٣٦).

وفي حديث سؤال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ أنه قال له: "**فأخبرني عن الإيمان؟** فقال عليه السلام: "**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**" (رواه مسلم).

وهذه القدرة على الاستيعاب في الإسلام والتي ينفرد بها، كثيرًا ما يتغافل عنها المتعصبون ويُخفيها المدلّسون من متعصبة الأديان الأخرى.

ولو طالع اليهود مقدار تعظيم المسلمين لأنبيائهم عليهم السلام: بدءًا بإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، وقوفًا عند موسى عليه السلام، ومرورًا بداود وسليمان وأيوب ويونس وغيرهم عليهم السلام، لعلموا أن المسلمين أَولى بهؤلاء الأنبياء عليهم السلام منهم، توقيرًا وتنزيهًا عن القبائح التي نسب اليهود كثيرًا منها إلى غالبهم.

وهل يعلم النصارى أنه قد ورد اسم مريم في القرآن الكريم إحدى وثلاثين مرة، وأن سورة من القرآن قد سُمّيت باسمها، وأنها كانت في القرآن مضرب المثل للمؤمنات؟ ﴿**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۞ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ**﴾(التحريم:١١-١٢).

هل يعلم النصارى أن مريم العذراء عليها السلام عندنا هي سيدة نساء العالمين: ﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾(آل عمران:٤٢).

هل يعلم النصارى أن النبي ﷺ بيّنَ فضلَ ابنته الزهراء فاطمة ﵂ على نساء العالمين، ولم يستثنِ أحدًا من النساء من تفضيله هذا لابنته إلا مريم بن عمران عليها السلام وحدها؟ فلم يُفضّل بَضعته الزهراء ﵂ عليها وهي أحبّ بناته إليه، حيث قال ﷺ لابنته فاطمة ﵂ أنها: "**سيدة نساء أهل الجنة، إلا مريم بنت عمران**" (رواه أحمد).

فهل يوجد استيعابٌ أعظم من هذا الاستيعاب، والذي تجاوز مجردَ أن يستوعب الإسلامُ بإيمانه الإيمانَ بالمعظَّمين من الأنبياء والأصفياء، إلى بيان فضلهم وشرفهم وتقدّمهم بين الأنبياء والأصفياء ﵈؟!

٦- تحريم الإسلام السخريةَ بالمقدسات عند غير المسلمين: قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾(الأنعام:١٠٨).

ففي هذه الآية ينهى الله تعالى المسلمين عن شتم آلهة الوثنيين؛ لأنه شرٌّ لا خير فيه، فلا السبّ بالذي سيدعوهم إلى الإسلام، بل سينفّرهم منه، ولا هو بالذي سيجرّ إلى تعظيم الله تعالى، بل سيجر إلى أن يسب المشركون الله ﷻ.

ومن لطائف بلاغة هذه الآية، أنها راعت أدبَها الذي تدعو إليه في لفظها نفسه؛ فمع أن الأصنام حجارةٌ لا تعقل، ومع أن اسم الموصول "الذين" خاص بالعاقل، مع ذلك لم تأت الآية معبّرة عن الأصنام باسم الموصول "ما" الذي لغير العاقل، فلم يقل الله تعالى "وَلَا تَسُبُّوا مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ"، وإنما قال تعالى ﴿**وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ**﴾، مراعاةً لاعتقاد الكفار في الأصنام وأنها عندهم آلهةٌ تعقل! وهذا غاية في الأدب واللطف وفي الموادعة.

الذات والآخر ودعوة إلى التواصل والمثاقفة [1]

أ.د. بركات محمد مراد[*]

الحداثة موقف فكري جديد ورؤية فلسفية للنظر إلى الذات والعالم طبقًا لمنظورات مختلفة عن المرجعيات التقليدية الموروثة والمرجعيات المستعارة من الآخر، وغايتها إعادة ترتيب الواقع والفكر طبقًا لحاجات اللحظة التاريخية المتجددة. وهي لا تقر بالثبات إنما تتطلع دائمًا إلى التجدد، وبذلك تنتج فكرًا يتحول باستمرار متخطيًا فكرة الهوية القارة واليقين الثابت، وبهما تستبدل هوية ثقافية وقيمية متحولة ومنفتحة تقر بنسبية علاقتها مع نفسها وتاريخها وفرضياتها بالدرجة نفسها التي تقر فيها بنسبية الهويات الأخرى، وتشكل مضمونها من نسيج متنوع الموارد يقوم على فكرة الحوار والتواصل والتفاعل، ثم تقليب المفاهيم والنظريات والمرجعيات الموروثة والمستعارة على كل الأوجه والاحتمالات عبر ممارسة نقدية جريئة. فبدون النقد تظل العلاقة مع المؤثرات الأخرى علاقة استتباع وخوف وقلق وتوتر.

---

[1] نشر هذا المقال في العدد ٦٢ من مجلة حراء سنة ٢٠١٧

[*] رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس/مصر.

ولذلك نحن نسلم مع الدكتور "أنطوان سيف " بأن وهن الثقافة العربية الراهنة ليس ناجمًا عن غربتها عن تاريخها، بل ناجم عن غربتها عن "تاريخيتها"، أي عن عدم وعيها شروط موقعها في بنية المرحلة التاريخية ماضيًا وراهنًا.

وقد تزعم الثقافة العربية والإسلامية الآن، أنها متفوقة على جميع الثقافات الأخرى، وقد تدّعي أنها تمتلك أدوات معرفية فوق كل شبهة، ولكن هل هذا سيكون كافيًا ليمكّنها من الانكفاء على ذاتها، ويجنّبها الاحتكاك بثقافات أخرى متفوقة عليها؟ أم أنها ستضطر في الأخير إلى الاعتراف بـ"الآخر المتفوق" وإن كان خصمًا لها أو عدوًّا؟

أوليس من المفارقات أن تتحدث هذه الثقافة بكل فخر عن تلك الحقبة من التاريخ، التي سيطرت فيها على العالم، وساهمت في تكوين ثقافة الآخر، والتي بفضلها خرجت الثقافة الغربية من عصورها المتخلفة والمظلمة، وشهدت نهضة استمرت في التقدم دون انقطاع إلى وقتنا الحاضر، وبالمقابل ترفض أن تدخل مع هذا الآخر في عملية " مثاقفة" ولكن في الاتجاه المعاكس هذه المرة، رغم أن ظروف العصر تتطلب وبإلحاح ذلك؟ !

ومن هذا المنطلق، يعتقد الباحث "أنطوان سيف " أن " انكفاء الوعي على ذاته بعد ارتداده عن الموضوعات الخارجية التي كان يشرف عليها بثقة مفرطة بذاته، هو حافز لارتقائه إلى فكر ناقد لأدوات عمله، وإلى فكر مُسائل مساءلة استعلائية حول ماهيته وهويته".

ولا سبيل لتجاوز سلبيات الأيديولوجيات التراثية إلا بمواجهة الذات أولاً؛ للتعرف على أسباب الضعف التي أدت إلى هذا السبات الطويل من التأخر، وبالاعتراف على "الآخر المتفوق" ثانيًا؛ لأن الرهان الأجدى "هو المبني على معركة فكرية تعرف عناصرها معرفة معمقة". ويرى الباحث أن هذه المعرفة مستحيلة ما لم ننفتح على الخصم: "إنه منطق تاريخ الثقافة وحياتها ودورها ووظيفتها"، بل ويذهب "سيف" إلى أبعد من ذلك عندما يقرر أن "الخصم" "هو ضرورة ثقافية، نقيض ضروري، وتزداد ضرورته قيمة مع قيمة طروحاته وتحديها لنا، وقدرته على زحزحة بُنى فكرنا، وتأخذ المثقافة معناها وتعنى بمتطلبات وظيفتها بقدر ما يقترب أطراف التثاقف من التوازن في التحدي المتبادل".

رهاننا هنا هو الشروع في مواجهة الذات ووعيها، والشروع في نقد أدواتها المعرفية من أجل الاستفادة من إيجابيات "المثقافة" مع الأخذ في الاعتبار حقيقة أن الحاضر متصل بالماضي، وأنه من المستحيل أن توجد "قطيعة ثقافية" بالمعنى الحرفي والمطلق، وأن كل حضارة هي عبارة عن تراكمات تتصل بالماضي. لذا فلا معنى لدعوة من ينادي باستعادة التاريخ من أجل علاج الأزمات والتحديات التي تواجهها الثقافة العربية والإسلامية، ذلك لأننا لم نفقد التاريخ لكي ننادي باستعادته، فالماضي والحاضر تاريخ واحد يتحرك إلى الأمام، وهو غير قابل للارتداد أبدًا.

ومن هنا علينا أن نسلم بأن النخبة العربية الثقافية لم تدرك أهمية دورها، ولم تمارس شيئًا من ذلك الدور، إذ إن نسيج المجتمع التقليدي لم يتعرض للتحليل والتشريح والنقد، فنشأ مع الزمن خوف من الاقتراب إلى هذا الموضوع الذي يكاد يعتبره الجميع قيمًا مقدسة لا يصح نقدها. والحق، ما من مسافة تفصل المثقف العربي عن شيء آخر، أبعد من المسافة التي تفصله عن مجتمعه، وحتى لو ادعى الاقتراب إليه فهو اقتراب محكوم بدرجة عالية من سوء التفاهم وسوء الظن. وهذا الوضع هو الذي قاد - وبصورة لا تقبل اللبس- إلى نبذ المجتمع للمثقف وعدم تقديره دوره، إلا بوصفه كائنًا غريبًا يُحتفى أحيانًا به لكن لا موقع فاعلاً له في الأوساط الاجتماعية.

ومن المؤسف أن أفضل التحليلات الفكرية والأنثربولوجية والتاريخية والاجتماعية والأدبية المعتمدة في الأوساط الأكاديمية التربوية، قام بها دارسون غربيون لمجتمعنا وثقافتنا وديننا وتقاليدنا وأدبنا، وهي تحليلات تعكس رؤيتهم ومرجعيتهم التي يصدرون عنها أكثر مما تعبر عن حقيقة الموضوعات التي درستها، وكثيرًا ما جرى تعسف في إخضاع المادة المدروسة لتوافق الخلفيات الثقافية التي توجههم، وذلك يفضح قصور النخبة الثقافية التي لا يمكن وصفها إلا بأنها تلاعبت بمجتمعها دون أن تضع في اعتبارها أمر تحديثه، ولهذا نبذت وتقطعت روابطها، وانعزلت عن خلفياتها الاجتماعية، واستأثرت بالمكانة النخب الدينية والسياسية والعسكرية.

ومن الواضح أن تواطؤًا قد وقع بين هذه النخب أفضى إلى استبعاد النخبة الثقافية التي لم تنجح من قبل في إنجاز وعودها، إلى درجة صار سؤال التحديث - الذي يفترض أن تثيره النخبة الثقافية سؤالاً محضورًا ومشبعًا بمعاني تثير المخاوف في المجتمع وتبعث استعداء للمثقف، مما جعل سؤال الحداثة اليوم بالنسبة للعرب والمسلمين لا جواب عليه، فهو ضائع في خضمّ التوترات العرقية والمذهبية، ومتقطع بين التطلعات المتناقضة، وعالق بين التيارات المتعارضة، وشبه مفرغ من المعنى في ظل العولمة.

في بحث مطول وتحت عنوان "نحو تحرير الروح العربية الإسلامية من عقالها" كتب هاشم صالح عن أمنيته في حدوث كارثة، لكن كارثة من شأنها أن تدفع إلى انهيار. وهو يشدد على ذلك بقوله: "ينبغي أن يحصل انهيار وأن يتفجر في وجهنا الزلزال"، فمن شأن الانهيار أن يولد مزيدًا من الأسئلة، بصورة أدق أن يدفع بالأسئلة المحجوبة في أعماق الواقع والمكبوتة في تلافيفه إلى الواجهة.

إن هاشم صالح يدفع إلى الواجهة بنظرية التحدي والاستجابة، ولكن بصورة أكثر فجائعية، بحيث يمكن القول إنها التعبير الأكثر حدة عن أيديولوجيا الإحباط التي تستبطن مسيرة الخطاب العربي المعاصر والتي تدفعه إلى النكوص على عقبيه، والدعاء على مجتمعه بالويل والثبور، بصورة أدق بالقيام بإحراق البجعة المحتضرة (المجتمع العربي التقليدي) وإعادة بنائه من جديد على غرار الغرب

كما دعانا بعض المفكرين العرب في أواسط عقد السبعينات من القرن المنصرم.

إن فجوة عميقة تفصل بين الواقع والحلم في الحياة العربية والإسلامية الحديثة "وفي الوقت الذي ينزع فيه الشعب نحو التوحد محليًا أو إقليميًا، أو على صعيد عربي شامل، وتعلن الطبقات الحاكمة عن تمسكها بالهوية العربية في تصريحاتها وخطبها العامة ودساتيرها التي نادرًا ما تتقيد بها، نجد أن المجتمع العربي يزداد معاناة من التشتت والتنافر والعجز والتراجع أكثر من ارتباطها بنفسها".

ومن هنا يرى الباحث "حليم بركات" أن الحل يكمن في بروز نوع ثالث ما بين القطري والقومي، ينطلق للعمل المشترك على رؤية حضارية تفهم الهوية على أنها دائرة منفتحة على التاريخ والواقع والحضارات الأخرى، ولكنها تؤكد -في الوقت ذاته- على حقوقها بقدر ما تحترم غيرها. هذا هو النزوع الذي لم يترسخ بعد في الثقافة العربية، لذا ليس من الغريب -إذن- أن يستمر المجتمع العربي والإسلامي في موقعه الهامشي ساعيًا بإحساس مأساوي لتجاوز الحاضر.

لقد انطلق الكاتب حليم بركات في رؤيته للتغيير التجاوزي من عبارة جميلة لجبران خليل جبران قال فيها :"ليس التقدم بتحسين ما كان، بل بالسير نحو ما سيكون". وهي تشكل ركيزة مهمة لمسألة التغيير التجاوزي بمختلف إشكالياتها. انطلاقًا من هذه الرؤية المنهجية يدعو الباحث إلى "ثقافة التحول الشامل من حالة الانفعال

إلى حالة الفعل بالتاريخ، وذلك بتجاوز الأوضاع والأنظمة السائدة التي هي في صلب استمرارية التخلف العربي والإسلامي وتجلياته وإحباطاته ومشاريعه المستقبلية.

ويرى الباحث " مسعود ضاهر " أن مبرر هذه الدعوة إلى التغيير التجاوزي الشمولي، يكمن في رؤية المجتمع العربي الراهن على حقيقته "كمجتمع مغلق ومنكفئ على ذاته، ومُصر على التمسك بثقافته ومؤسساته التقليدية التي تقاوم التغيير والتفاعل الجريء مع الحضارات الأخرى من موقع غياب الثقة بالذات ومخاوف الانزلاق في متاهات التاريخ". لذا تندرج توصيات الباحث في إطار تعزيز دور المثقف المبدع في عملية التغيير، وليس تجسير الفجوة مع الأنظمة السلطوية الحاكمة في الوطن العربي، وأبرز تلك التوصيات هي :

- العمل على أن تنال المؤسسات الثقافية الرسمية وشبه الرسمية الاستقلالية الضرورية للتعبير عن نفسها بحرية، ويرافق هذا العمل تشجيع قيام المؤسسات والجمعيات الثقافية الطوعية.
- تجديد القيم التي يجب أن ينشأ عليها العربي منذ الطفولة وما بعدها، ليس بالتلقين وفرض الامتثال، بل بخلق المجالات والأجواء الضرورية للتعلم من خلال الممارسة اليومية وانفتاح الآفاق واتساع الرؤية.
- إحداث ثورة في التعليم الجامعي بإحداث موازنة خلاقة بين التعليم والبحث وخدمة المجتمع وبين العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية والفنون، لا بل إنشاء معاهد ومراكز

الأبحاث في المجالات كافة بدءًا من تلك التي لها علاقة بالواقع وحاجات المجتمع والشعب.

- التعامل مع النظام الكوني الجديد من موقع الاستقلالية، والاستفادة من الثورات المعلوماتية من دون تجاهل الجانب المظلم من العولمة. لا بد للمثقف العربي من التمرس بالإبداع من دون خوف أو رقابة ذاتية، وبهذا لا يفكر فقط بما اعتدنا التفكير فيه ولا بما يسمح له بالتفكير به، بل بما يمكن التفكير فيه.
- وأخيرًا وبقدر المطالبة من قبل المثقفين بإطلاق حرية التفكير النقدي والتساؤلي، وحرية الصراع الثقافي بحصول الاستقلالية عن سطوة الدولة على الثقافة، لا بد للمثقفين أنفسهم من معالجة مشكلة عزلة المثقف عن الشعب، وفي إقامته علاقة سليمة بين المثقفين والشعب.

المراجع

وعي الذات وصدمة الآخر، لأنطوان سيف، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ٢٠٠١ م.

نحو تحرير الروح العربية الإسلامية من عقالها، لهاشم صالح، مجلة نزوي، العدد ٨، ١٩٩٦م.

المجتمع العربي في القرن العشرين، لحليم بركات، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠١ م.

الجالية المسلمة في الغرب وآليات الانفتاح الإيجابي[٢]

د. محمد الدرداري[*]

إن انفتاح الأقليات المسلمة على غيرها في البلدان الأوروبية، له من المزايا والفضائل ما يجعل دعوة الإسلام تصل إلى مختلف البقاع وتنتشر في سائر الأقطار، ولا شك أن ذلك يشكِّل فرصة سانحة أمام أبناء الغرب ليصحِّحوا ما علق في أذهانهم من مزاعم باطلة عن الإسلام والمسلمين، إذ من خلال ذلك يتعرَّفون على الإسلام والمسلمين، ويدركون أن ما رسَخ في أذهانهم من صورة نمطية سلبية، لا يعدو أن يكون أباطيل روَّجتها بعض الجهات لكي تخدم أجندتها الخاصة. إن انفتاح الأقليات المسلمة في الغرب، ينبغي أن يمر عبر المشاركة الفاعلة في مختلف المجالات الحياتية؛ الحضارية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية.. وفي ضوء ذلك يتحدد مدى قدرة هؤلاء على الاندماج الفاعل والإيجابي في البلدان المستقبِلة.

---

[٢] نشر هذا المقال في العدد ٦٤ من مجلة حراء سنة ٢٠١٨

[*] كاتب وباحث مغربي.

المشاركة في البناء الحضاري

لقد مكث المسلمون في الغرب لسنوات مديدة وهم يعيشون على هامش الحضارة الغربية، فلم يكن دورهم ليخرج عن استهلاك منتجات تلك الحضارة، سواء فيما يتعلق بالمنتجات الأدبية أو الفنية أو العلمية.. يأخذون ولا يُعطون، يستفيدون ولا يُفيدون، يتأثرون ولا يُؤثرون؛ إذ لم تكن عندهم القدرة على المشاركة الحضارية سوى القيام ببعض الأعمال اليدوية أو التقليدية البسيطة.

وهكذا ارتبط الإسلام عند فئات عريضة من أبناء المجتمع الغربي بالتخلف الحضاري والعلمي والثقافي، ولم يَفْصِلوا بين الإسلام كدين رباني يحث على التقدم والإبداع والبحث العلمي، وبين حال المسلمين الذين تخلَّوا عن قيم دينهم فأصبحوا متخلِّفين علميًّا وحضاريًّا، يعيشون في مؤخرة الأمم تابعين يستوردون كل شيء دون رغبة أكيدة منهم في الاستقلال بذواتهم عن التبعية للغرب.

إن الشراكة الحضارية للأقليات المسلمة في بلاد المهجر، تعدُّ مدخلاً فاعلاً في تصحيح الصورة النمطية عن الإسلام والمسلمين في الغرب، إذ من خلال ذلك تَبطل -وبشكل عملي- جملة من الشبه والافتراءات التي دأب أصحاب المصالح على بثها وترويجها في الأوساط الغربية، وهذه الشراكة اليوم هي إحدى أهم التحديات التي تواجه المسلمين في بلدان إقامتهم، وذلك بالنظر إلى الحجم الضئيل لإسهام هؤلاء في تنمية الجسم الحضاري الغربي.

إن هـذه الشـراكة المنشـودة تسـتند إلـى أصـول ثابتـة فـي الشـرع الحنيف، فالمسلم ينبغي أن يكون صاحب رسالة في أيِّ موطن كان، فـالأرض كلهـا لله، ومـن مقتضيـات تلـك الرسـالة أن ينفـع الناس ما وجـد إلـى ذلك سـبيلاً، وأن يتعـاون معهم فيما فيـه الخير والصلاح، لقوله ﷺ : "**أَحَبُّ الناس إلى الله أَنفعُهم للناس**" (رواه الطبراني)، كما نجد هـذا المعنـى متضمنًـا في قوله تعالـى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾(البقرة:١٤٣)؛ فمـن بين مقتضيات الشـهادة على النـاس، أن ننقل إليهم ما عندنا من خير سـواء كان ماديًّا أو معنويًّا، قليلاً أو كثيرًا، دينيًّا أو دنيويًّا.. وهذا معناه أن يَمُدَّ المسـلمُ جسـورَ التواصل مـع من يعيش معهم ليشـترك الجميـع في المصلحة المشتركة، وهذا كله واجب على المسلم الذي يعيش مـع غيره في أي مجتمـع، بغض النظر عن الاختلاف الحاصل بينهم في الدين أو اللغة أو الثقافة.

المشاركة السياسية الرشيدة

يمكن للمرء أن يقرر بأن المشـاركة السياسـية للأقليات المسـلمة في الغرب، تمثل أبرز مظاهر الاندماج الإيجابي في تلك المجتمعات، فـإذا كان الانفتـاح على المحيط المختلف ثقافيًّا ودينيًّا ونبذ الانطواء من المعايير المحددة لاندماج الأفراد، فإن المشـاركة السياسـية تعتبر مؤشـرًا دقيقًـا لمعرفة مـدى رغبة المجموعـات والأقليات والطوائف في التعايش، وتحقيق أعلى درجات الانفتاح الإيجابي والفعال.

يقول الدكتور حسام شاكر متحدثًا عن مفهوم المشاركة السياسية لمسلمي أوروبا: "يُقصد بالمشاركة السياسية الرشيدة لمسلمي أوروبا، ما يُبتغى منه تحقيق تفاعلهم الإيجابي المثمر مع الساحة السياسية بشتى الأشكال الممكنة بالصورة التي تتوافق مع خصوصيات الساحة الأوروبية، وتستهدي أيضًا بالتوجيهات الإسلامية"[١].

إن الإقبال على ممارسة العمل السياسي في بلاد المهجر، له من الأهمية ما يبوّئه المكانة الرفيعة، وذلك لما يترتب عليه من التعريف الصحيح بالدين الإسلامي، وإيجاد نخبة سياسية قادرة على الدفاع عن حقوق الأقليات المسلمة وتعريف أبنائها بحقوقهم وواجباتهم وفق الأطر القانونية داخل الدول الأوروبية، بما يضمن حضورًا لائقًا للمسلمين في هذه الساحة على أسس التفاعل السليم مع شركاء المواطنة من الأطراف السياسية والحزبية الأخرى.

وإذا كان حضور المسلمين سياسيًّا في الغرب لا محيد عنه، لما له من أهمية بالغة في خلق جسور التواصل والانفتاح والتعايش مع الآخر، فإن ترجمة ذلك عمليًّا يمكن أن يتم في ضوء الإجراءات الآتية:

أ- انخراط المسلمين في العمل السياسي عبر تأسيس أحزاب، أو التحاقهم بأحزاب وتكتلات سياسية قائمة في المجال الغربي.

ب- التصويت في الانتخابات الرئاسية والبرلمانية والترشح لذلك.

جـ- المشاركة في الاستفتاء على الدساتير بالقبول أو الرفض.

---

[١] مسلمو أوروبا والمشاركة السياسية، لحسام شاكر، إصدارات المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، دبلن ٢٠٠٧م، ص:٢٢١.

د- المساهمة في الأنشطة الحزبية والحكومية والدستورية.

هـ- المساهمة في تمويل الأنشطة السياسية والحزبية بما يخدم المصلحة العامة، وبالشكل الذي لا يتعارض مع القانون أو يخرج عنه.

و- المشاركة في التظاهرات الجماهيرية السلمية، وإعداد العرائض وتوقيعها، والمطالبة باتخاذ إجراءات أو سن قوانين، وغير ذلك من الأنشطة، شريطة أن لا تكون خارجة عن إرادة القانون.

ز- بناء التحالفات مع مختلف القوى السياسية أو الحزبية أو النقابية، لما يرجى معه من الانفتاح على الآخر، وزيادة القدرة على التأثير أو الضغط على بعض القوى الانتهازية ذات التوجه اليميني المتطرف.

ح- تنظيم النشاطات الفكرية ذات التوجه السياسي كمحاضرات وندوات ودورات تكوينية أيام الدراسة، بغية نشر الوعي السياسي في صفوف أبناء الأقليات الإسلامية وتأهيلها لتحمل مسؤولياتها داخل المجتمعات الغربية.

المشاركة في العمل الخيري التطوعي

ويراد بذلك انخراط الإنسان المسلم في بلاد المهجر في العمل الاجتماعي التطوعي الذي تتعدى فائدته حدود الفرد المسلم لتشمل كل أفراد المجتمع دون استثناء، بغض النظر عن الانتماء الديني أو العرقي أو الأيديولوجي، وغيرها من الاعتبارات الأخرى.

ومما لا شك فيه، إن ما تقوم به بعض الجمعيات والمنظمات والمؤسسات الإسلامية في الغرب من عمل خيري إحساني على تواضعه، يساهم في إبراز الصورة الحقيقية للإسلام الحنيف، ويدحض الصور النمطية السيئة التي غرسها بعض الإعلام الغربي في عقول الناس عن الإسلام والمسلمين.

والعمل التطوعي الذي ننشد النهوض به في صفوف المسلمين في مجتمع الأقليات، يتخذ صورًا عدة، منها:

١- تقديم يد العون والمساعدة أثناء الكوارث؛ كالزلازل أو الفيضانات أو الحروب.

٢- تقديم الدعم المادي والمعنوي للهيئات والمنظمات الإنسانية الغربية، التي تشتغل في مجال الإغاثة والتكفل بذوي الاحتياجات الخاصة.

٣- تأسيس مشاريع خيرية مستقلة لمحاربة التشرد والحرمان والجريمة.

٤- الانخراط في الحملات التوعوية التي تستهدف الصحة العامة، مثل حملات التشجير، وتنظيف المرافق العام كالشوارع والحدائق والممرات، ونشر الوعي حول خطورة بعض الآفات كتعاطي المخدرات والتدخين.

المشاركة في المناسبات الاجتماعية

تلبية دعوتهم في المناسبات الاجتماعية كالزفاف، وازدياد مولود، وغيرها.. ودعوتهم إلى حضور مناسباتنا المختلفة.

عيادتهم في المرض، والاطمئنان عليهم، وتفقُّدهم بين الفينة والأخرى، والدعاء لهم بالهداية والشفاء.

تهنئتهم بالنجاح في العمل أو الدراسة أو غيرها من المناسبات المفرحة. ومواساتهم عند نزول الكرب، كموت أو حادث وغير ذلك، تقديم الهدايا إليهم وقبولها منهم.

إن الالتزام بهذه الأخلاق الاجتماعية والقيم الإنسانية والحضارية في بلاد المهجر يعدُّ واجبًا شرعيًّا، فبالإضافة إلى ما يتحقق في ظل ذلك من التخفيف على الناس ورفع الكرب عنهم، فإنه يسهم في الدعوة إلى الله بالحسنى، ويعرف الناس بالإسلام وما فيه من الأحكام التي فيها صلاح للناس، وما فيه من الآداب والمكارم التي تأسر مشاعرهم وتستحوذ على عقولهم وقلوبهم[٢]

---

[٢] حكم مشاركة المسلمين في مجتمع الأقليات اجتماعيًّا وسياسيًّا، للدكتور حمزة بن حسين العفر الشريف، المجلة العلمية للمجلس الأوروبي، ع/١١-١٢، ١٢ رجب ١٤٢٩هـ، ص:٢٨٥.

كيف نتعايش رغم اختلافنا؟[٣]

د. عبد العزيز الإدريسي[*]

منذ مدة ليست بالقصيرة تصاعدت وتيرة الصراعات الدينية والمذهبية والعرقية والقومية والطائفية في العالم، وشكلت هذه الصراعات ميادين للقتل والعنف والتعصب والغلو والإلغاء والتصفية الجسدية والتدمير، في مصادمة واضحة وصريحة لرسالةِ وتعاليم أغلب الأديان.

وتعتبر الجغرافيا العربية والإسلامية أكثر المناطق احتضانًا لهذه الأحداث والصراعات، رغم ما تنطوي عليه مرجعياتُها الفكرية والعلمية والسياسية من دعوة للحوار والسلم والتسامح والتعاون والتشارك. والسؤال الذي يفرض نفسه بقوة: كيف نعيش ونحن مختلفون؟ وكيف نتعايش مع الآخر؟

والإجابة على هذا السؤال تقتضي البحث في البنى المعرفية والمرجعيات الفكرية والأطر المرجعية لأي مجتمع، من أجل

[٣] نشر هذا المقال في العدد ٦٤ من مجلة حراء سنة ٢٠١٨

[*] كاتب وباحث مغربي.

ضمان التعامل البيداغوجي مع الاختلاف الإنساني، وضمان العيش المشترك بين بني البشر، بغض النظر عن اللون أو الجنس أو الدين أو العرق. والقرآن الكريم بما احتواه من نظرية حوارية تواصلية بين الناس كل الناس، قد أسس للعيش المشترك ضمانًا للأمن الروحي والحرية الفكرية.

مفهوم الحوار

ورد مفهوم الحوار بمبناه ومعناه ومغزاه من بداية القرآن إلى نهايته، حيث أكد على معنى المشاركة في الحديث والتفاعل في التواصل، الذي يجري بين طرفين أو أكثر، ويفترض أن الهدف منه السير معًا في سبيل الفهم والإفهام والإقناع والاقتناع والعقل والتعقل والعلم والتعلم، والبحث الصادق عن نقاط التلاقي والتقارب من أجل التعايش والتعاون، ويمكن أن نمثل لهذا المعنى بمفتتح سورة المجادلة، قال الله سبحانه: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾(المجادلة:١)؛ فهذه الآية تؤكد بأن الحوار البنّاء منهج أصيل في حل المشكلات، وآلية بيداغوجية في التربية، فبالرجوع إلى أسباب نزول الآية الكريمة، يتبين أن أسرة أوس بن الصامت وزوجه خولة بنت ثعلبة، قد وقعت في مشكلة "الظهار"، فلم تجد الزوجة بدًا من اللجوء إلى الرسول ﷺ لتعرض مشكلتها في حالة نفسية منهارة ومعنويات محطمة، دل على ذلك شكواها وجدالها بمنطوق الآية، فنقلها النبي ﷺ من حال الشكوى والجدال إلى الحوار الهادئ البناء: ﴿**وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا**﴾(المجادلة:١).

في السياق ذاته نستحضر الحوار الأنموذج لإبراهيم ﷺ مع أبيه آزر: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۞ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۞ يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۞ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۞ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ۞ قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ۞ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾(مريم:٤١-٤٩)؛ حيث يستعرض القرآن الكريم في هذا المشهد الحوراي المكتنز منظومة من القيم التواصلية التي تؤطر الإنسان بأخيه الإنسان بغض النظر عن الدين أو العرق أو الجنس أو اللون أو السن، حتى وإن تعرض صاحبه للعدوان أو السب أو الإقصاء أو التهديد..

فهو راسخ في موقفه الإنساني؛ لأن الحوار مبدأ وليس خيارًا، "وبناء على هذا الإدراك فإن الحوار اليوم قد تجاوز بمراحل كونه مجرد اختيار، إلى صيرانه ضرورة، ولا سيما أن البشرية اليوم قد أصبحت أفعل وأقدر في مجالات التدمير منها في العصور التي مضت"[1].

المقولات التأسيسية للحوار في القرآن

المقولة الأولى "اقرأ" وهي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ

[1] الوحي والإنسان نحو استئناف التعامل المنهاجي مع الوحي، للدكتور أحمد عبادي، ص:٢٩٣، دار النيل للطباعة والنشر ٢٠١٣م، القاهرة.

بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق١-٤). يؤكد الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي انطلاقًا من هذه الآيات، على "الغائية التي ترفض فكرة عبثية الكون أو صدفيته أو لهو الخلق"؛ فالفاروقي ﷺ يؤكد على أن مفهوم "الرب" هو نواة الخبرة الدينية[٢]، كما يؤكد على مركزية الإنسان في فهم مراد الله وبناء تصوره المعرفي والعقدي وعطائه الحضاري. وعليه، فإن منطلق أيّ حوار إنساني ناجح وناجع هو قراءة الذات أولاً، ثم قراءة الآخر قراءة علمية موضوعية تستصحب البعد الرباني في النشأة والخلق والمصير.

المقولة الثانية النموذج التعارفي، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾(الحجرات:١٣)، يقول فريد الأنصاري ﷺ في بيان مدلول هذه الآية العظيمة: "فهذا النداء الرباني العظيم، إعلام للبشرية جمعاء أنها من طينة واحدة وأنها خلقة واحدة وأنها جنس واحد، ذلك أنه تعالى قد خلق الناس جميعًا من نفس واحدة، وجعل منها زوجها وهما آدم وحواء، وكل ما تناسل عنهما من ذكر وأنثى، ثم جعلهم شعوبا وقبائل (...) فجميع الناس في الشرف -بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء ﷺ- سواء، وإنما يتفاضلون بالمقامات الدينية؛ من منازل الصلاح والتقوى، والأتقى هو الأعرف بالله والأعلم به تعالى مقامًا وخشية (...)، وقوله تعالى "لِتَعَارَفُوا"، أيْ ليحصل التعارف العمراني فيما بينكم من أجل التعاون على البر والتقوى، وبناء الحضارة الإنسانية على عبادة الله وتوحيده، ومن أجل

[٢] التوحيد مضامينه على الفكر والحياة، لإسماعيل راجي الفاروقي، ص:٥٥.

التعاون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحفظ حقوق الله والحقوق العامة والخاصة"[٣].

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض، وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس، ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون؛ ألوهية الله للجميع وخلقهم من أصل واحد، كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته وهو لواء التقوى في ظل الله، وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت وكلها من الجاهلية وإليها، تتزيّا بشتى الأزياء وتسمى بشتى الأسماء وكلها جاهلية عارية من الإسلام، قال رسول الله ﷺ: "**كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان**" (رواه الترمذي)، وقال ﷺ عن العصبية الجاهلية: "**دعوها فإنها منتنة**" (رواه البخاري)، وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي المجتمع الإنساني العالمي.

المقولة الثالثة: في سورة الأنبياء يختتم الله تعالى مسيرة الرسل الذين ذكرهم بالاسم -وعددهم ثمانية عشر رسولاً- بهذا المشهد الإنساني الرفيع: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۞ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ۞ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾(١٠٥-١٠٧). لقد استخلف الله آدم عليه السلام في

[٣] مجالس القرآن مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ، للدكتور فريد الأنصاري، الجزء الأول، ص:٣٨٨.

الأرض لعمارتها وإصلاحها وتنميتها وتحويرها، واستخدام الكنوز والطاقات المرصودة فيها، واستغلال الثروات الظاهرة والمخبوءة، والبلوغ بها إلى الكمال المقدر لها في علم الله.. ولقد وضع الله للبشر منهجًا كاملاً متكاملاً للعمل على وفقه في هذه الأرض، منهجًا يقوم على الإيمان والعمل الصالح. وفي الرسالة الأخيرة للبشر فصل هذا المنهج، وشرع له القوانين التي تقيمه وتحرسه وتكفل التناسق والتوازن بين خطواته.

في هذا المنهج ليست عمارة الأرض واستغلال ثرواتها والانتفاع بطاقاتها هو وحده المقصود، ولكن المقصود هو هذا مع العناية بضمير الإنسان، ليبلغ الإنسان كماله المقدر له في هذه الحياة، فلا ينتكس حيوانًا في وسط الحضارة المادية الزاهرة، ولا يهبط إلى الدرك بإنسانيته وهو يرتفع إلى الأوج في استغلال موارد الثروة الظاهرة والمخبوءة.

إن الحوار بهذه المنطلقات، أضحى ضرورة بشرية وحاجة اجتماعية وسمة حضارية. ويبقى السؤال: كيف السبيل إلى تعميم هذه المقاربة الحوارية الوظيفية في واقع الناس اليوم؟[٤].

---

[٤] الوحي والإنسان نحو استئناف التعامل المنهاجي مع الوحي، للدكتور أحمد عبادي، دار النيل للطباعة والنشر ٢٠١٣م، القاهرة.

الحوار ضرورة عصرية[٥]

أ.د. محي الدين عفيفي[*]

لا جدال في أن الحوار قد أصبح أكثر إلحاحًا من أي وقت مضى، بل أصبح ضرورة من ضرورات العصر، ليس فقط على مستوى الأفراد والجماعات، وإنما على مستوى العلاقات بين الأمم والشعوب المختلفة. ومن منطلق الأهمية البالغة للتعارف بين الأمم والشعوب والحضارات والأديان، كانت دعوة الإسلام إلى الحوار بين الأديان، وذلك لما للأديان من تأثير عميق في النفوس.

والموقف الإسلامي -في أي حوار ديني- موقف منفتح على الآخرين ومتسامح إلى أبعد الحدود. فقد أقر الإسلام منذ البداية، التعددية الدينية والمذهبية والثقافية، وصارت هذه التعددية من العلامات المميزة في التعاليم الإسلامية. والواقع أن قضية الحوار قد أصبحت تشكل في عالم اليوم ضرورة من ضرورات العصر، للتغلب على العديد من المشكلات الحياتية على جميع المستويات. يقول

[٥] نشر هذا المقال في العدد ٦٧ من مجلة حراء سنة ٢٠١٨

[*] الأمين العام السابق لمجمع البحوث الإسلامية / مصر.

عالم اللاهوت الألماني المعروف "هانز كونج": "لن يكون هناك سلام بين الأمم ما لم يكن هناك سلام بين الأديان، ولن يكون هناك سلام بين الأديان ما لم يكن هناك حوار بين الأديان".

إننا نعيش اليوم في عصر ليس فيه مكان للانعزال والتقوقع حيث أصبح العالم مثل "القرية الكونية".

إن مستقبل الإنسانية يتعلق بحل إشكالية التفاهم المتبادل بين الشعوب. إن التفاهم والتعايش بين طرفين مختلفين في الفكر والعقيدة، لا يتحقق إلا إذا توافر لدى كل منهما رغبة في العيش المشترك، وتسامح حول الأمور المختلف فيها، وقبول من الطرفين بالتعددية العقائدية. ولا يكفي أن يؤمن بالتعايش والتسامح طرف واحد بينما الطرف الآخر ينكر ذلك.

وكيف لنا أن نتصور قيام تعايش بين إنسان راغب فيه، ومؤمن بوجوبه، وصادق مخلص في سلوكه إليه، وآخر يرفض ذلك ويعتقد أنه من أمة تَفضُل جميع الأمم؟! كيف يمكن لإنسان سوي بتفكيره، إنساني بنظرته، متسامح بسلوكه، أن يعيش أو يتعايش مع هذا النمط من الناس؟! إن الحياة المشتركة مع الآخرين، تحتاج من جميع الأطراف أن يقبلوا التعايش مع التزام العدل والمساواة والسماحة والاحترام المتبادل.

إنه ليس من التسامح في شيء أن نقف موقف المتفرج حيال القسوة والظلم وغير ذلك مما يتعرض له الناس، بصرف النظر عن العرق أو اللون أو العقيدة. إنه برغم بلوغ الإنسان المعاصر ذروة

التقدم العلمي، إلا أنه لم يصل إلى السعادة المنشودة والاطمئنان والسكون، ولن يصل حتى يحقق متطلبات الأمن الحضاري والأمن الروحي. وعلى الرغم من تطور حياة الإنسان وانطلاقه نحو آفاق بعيدة المدى في تحقيق أسباب الرفاهية والدعة، فإنه لم يبلغ كنه السعادة بعد، بل إنه لم يزد إلا ضحالة وبعدًا عن سبيلها.

لقد تمكن الإنسان بتقدمه العملي والتكنولوجي أن يحقق لنفسه تيسير المعيشة من الناحية المادية، وكان يظن أن ذلك هو نهاية المطاف؛ لأنه أنكر الاعتراف بالروح، وكلما أهمل الإنسان روحه ولم يقم لها اعتبارًا، وراح يشبع رغبات الجسد والمادة، زادت حياته سوءًا وترديًا وافتقادًا للاطمئنان والسعادة. وقد أدى ذلك إلى أزمات في حياة الإنسانية، ومن أبرزها القلق، والحيرة، وتعاطي المخدرات، والظلم والإرهاب، واكتفى العالم الحر بمشاهدة مآسي الحروب في العالم الثالث دون التدخل لنزع فتيلها وإيجاد الحلول المناسبة لها، بل لقد تم استغلال الصراع لتحقيق أطماع مختلفة. والأديان قادرة على تغيير السلوك الإنساني وتحقيق التوازن والانضباط فيه.

لقد كثر الحديث في جميع المحافل المحلية والإقليمية والدولية حول حقوق الإنسان، لدرجة يتصور المرء معها أنه لم يكن هناك من قبل مراعاة لحقوق الإنسان على وجه الإطلاق.

إن كثرة الحديث عن حقوق الإنسان إنما يعني ضمن ما يعني أن الإنسان المعاصر يفتقد الشعور والوعي بهذه الحقوق، ومن ثم يذكّر نفسه بها، ثم لا يكتفي بالتذكير والتذكر، فيسجل هذه الحقوق

في عهود ومواثيق عديدة وقعت عليها كل دول العالم. وكم تحدث عنها المتحدثون عن حقوق الإنسان، وحللها المحللون من الفلاسفة والمصلحين، وبذلوا جهودًا كبيرة في صياغة هذه الحقوق وتحسين هذه الصياغات، حتى وصلت إلى صياغات دقيقة اتفق عليها الجميع.

والحقيقة التي ربما تكون قد غابت عن كل هؤلاء، أن هذه الحقوق التي يتحدثون عنها، إنما هي حقوق فطر الله الناس عليها، وأن البشر منذ حضاراتهم الأولى في الشرق القديم قد أدركوا هذه الحقوق وحافظوا عليها، وعبروا عنها في رواياتهم وكتاباتهم، وفي معاهداتهم ووثائقهم الدبلوماسية، كما كشفت عن ذلك بعض المعاهدات التي عقدت بين الدول والشعوب القديمة.

إن القارئ لتلك التشريعات ولنصوص هذه المعاهدات، يكتشف أن الإنسان القديم قد أدرك جيدًا حقوقه، وعرف جيدًا واجباته إزاء غيره من البشر. وقد ترسخ هذا الوعي عبر العصور من خلال تعاليم الديانات السماوية، وخاصة الدين الإسلامي الذي قدم أدق صور الاعتراف بحقوق الإنسان الأساسية، حيث طالب أتباعه والمؤمنين به بالحفاظ عليها، ووعدهم على ذلك بالثواب في الدنيا والآخرة.

ولا شك أن فلاسفة الغرب المحدثين من أمثال جان جاك روسو، وفولتير، ومونتسكيو، قد لعبوا دورًا كبيرًا في إيقاظ وعي الأوربيين نحو الحقوق الأساسية للإنسان، وعلى رأسها حق المساواة والحرية والإخاء والعدالة، وقد تطور هذا الوعي حتى صيغت تلك العهود والمواثيق الدولية. ولكن الممارسة الفعلية وخاصة في عصرنا هذا،

قد كشفت أن الخطاب النظري الذي كرسته هذه العهود وتلك المواثيق وما صاحبها من شروح وتفسيرات في واد، والأفعال التي يمارسها البشر في حق بعضهم البعض في واد آخر.

وكم تغنى قادة البلاد الغنية بما تعيشه بلادهم من حريات ومن رعاية لحقوق الإنسان، وكم كان حلمًا جميلاً لكل إنسان على ظهر هذا العالم وخاصة في بلاده النامية أو المتخلفة، أن يعيش في تلك البلاد التي هي رمز الثراء والحرية واحترام الحقوق. لكن كل ذلك انهار تحت وطأة عدم الاهتمام بمآسي الشعوب الفقيرة التي يفر منها الملايين بسبب الحروب والأعمال الإرهابية.

لقد استقر في الضمير الإنساني منذ فجر الحضارات البشرية أن العدل أساس الملك، وأن تحقيق العدالة في أي مجتمع إنما هو الأساس في كونه مجتمعًا إنسانيا، يراعي فيه الجميع حقوق الجميع، ولا يعتدي فيه أحد على أحد. ولقد راعت المجتمعات الإنسانية تحقيق العدالة بين أفرادها، من خلال ما سنته من قوانين وتشريعات وضعية قامت على إدراك فطري للضرورة الاجتماعية القائمة على العدل بين الناس كأفراد وكجماعات.

أدبيات الحوار والتواصل من منظور قرآني [1]

د. العطري بن عزوز[*]

أصبح الحوار والتواصل في الآونة الأخيرة ضرورة إنسانية ملحة، تقتضيها الظروف الراهنة التي تعيشها المجتمعات الإنسانية في عصر الإعلام الجديد، الذي تطورت وسائله بشكل مبهر وملفت للانتباه، والذي جعل العالم قرية واحدة وربما بيتًا واحدًا يقتضي التعايش فيه باختلاف توجهاته ومشاربه. وقد تطورت البحوث المعرفية في هذا المجال بطريقة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية، حتى أصبحت أزمة الإنسانية اليوم هي أزمة حوار وتواصل بين الشعوب والأمم.

فالحاجة إلى الحوار والتواصل حاجة مستمرة، وضرورة حضارية لكل المجتمعات. ولو تأملنا مضامين الفكر الإسلامي لوجدنا في المرجعية الإسلامية ما ينبه ويؤكد على هذا النهج؛ فالقرآن الكريم يتحدث عن الحوار كضرورة دينية وفكرية قبل أن تكون ضرورة اجتماعية. فأول حوار كان قبل أن يخلق الإنسان، هو

[1] نشر هذا المقال في العدد ٦٧ من مجلة حراء سنة ٢٠١٨

[*] باحث في الدراسات الإسلامية والإعجاز العلمي / الجزائر.

الحوار الذي جرى بين الخالق ﷻ والملائكة حول خلق الإنسان في قوله تعالى:﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾(البقرة:٣٠-٣٢).

فهذا الحوار بين الخالق ﷻ وبين الملائكة، يدل على مشروعيته وأهميته في تصحيح المفاهيم المغلوطة، حيث أراد الله تعالى أن يعلم الملائكة الحكمة من خلق الإنسان، باعتباره خليفة في الأرض بما امتاز به من العقل والإرادة وحرية الحركة، وإمكانات الإبداع في عمارة الأرض والإنتاج فيها.. ويكون الإنسان في الأرض مثل الملائكة في السماء مسؤول عن أعماله، والملائكة مجبولون على الطاعة، فهذه الحكمة هيأت الملائكة للسجود له سجود احترام وتكريم، وليس سجود عبادة.

فالقرآن الكريم يدعونا إلى الحوار من أجل تصحيح المفاهيم، ويبين لنا الآليات والمقاصد التي يحققها الحوار، لأن الحوار عندما ينحرف عن المقاصد والأهداف المسطرة له، يصبح جدالاً عقيمًا وهو ما نشهده في واقعنا اليوم في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة أو عبر وسائل الإعلام الجديدة، حيث أسهمت في تغييب الحوار عن ثقافة المجتمع.

وعليه، فنحن اليوم بحاجة ماسة لتفعيل التربية الحوارية، ابتداء بمؤسسة التربية الأولى (الأسرة)، وانتهاء بمؤسسات الدولة، إذ لن تسود فينا ثقافة الحوار، إلا بتربية مستمرة وشاملة على الحوار يتلقاها جميع أفراد المجتمع.

مفهوم الحوار والتواصل

الحوار هو الحديث بين شخصين أو أكثر عن طريق السؤال والجواب، من أجل تصحيح مفهوم وإظهار الحق. وقد ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً**﴾(الكهف:٣٧). وتوجد نماذج كثيرة من الحوار في القرآن الكريم، ولا تخلو قصة من قصص القرآن الكريم من الحوار الذي يجري بين الأنبياء وأقوامهم، وكذلك في السنة النبوية وسيرة الرسول ﷺ.

والتواصل هو تبادل المنافع والرسائل بين طرفين أو أكثر قصد التعارف. وتلك هي الحكمة من خلق البشر لقوله تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ**﴾(الحجرات:١٣).

منهج القرآن في الدعوة إلى الحوار والتواصل

اعتبر القرآن الكريم الحوار والتواصل مع الآخر من أهم الوسائل إلى الدعوة إلى الله تعالى، من أجل تعريف الآخر بدين الإسلام الذي اختاره الله لعباده بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ**﴾(آل عمران:١٩). وقد دعا القرآن أصحاب الديانات الأخرى

إلى الحوار، قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا**﴾(آل عمران:٦٤)، فقد بين القرآن الكريم المنهج الصحيح في دعوته إلى الحوار والتواصل مع الآخر، بحيث تكون له أسس وثوابت نذكر منها:

١- الإيمان بالله والتعامل في ظل هذا الإيمان بالمثل كما ذكرت الآية السابقة.

٢- التحلي بالأخلاق الحميدة التي جاء بها الإسلام ونبذ العصبية وأسباب التعصب للرأي مع التمسك باللين والحكمة في الخطاب: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾(فصلت:٣٤).

٣- جعل الحق والإنصاف والعدل هو أساس وهدف كل خطاب بين المسلم والمسلم، وبين المسلم وغير المسلم.

٤- إبقاء الصراع إلى المرحلة الأخيرة من الحوار وعدم اللجوء إليه إلا عند الضرورة.

٥- مراعاة شخصية الطرف الآخر في الحوار في محاولة إلى تجنب التعصب والانفعال، سواء كانت فكرة الطرف الآخر وموقفه مؤيدة أو معارضة.

٦- الإحاطة بموضوع الحوار والإلمام بالموضوع واستيعاب الفكرة التي يدور حولها الحوار.

٧- اختيار لغة وأسلوب الحوار، لقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾(فصلت:٣٣-٣٥).

وبمعرفة هذا المنهج الذي سطره القرآن، ندرك الهدف من الحوار الذي يتمركز حول توحيد الله ﷻ، وتعميم مبادئ العدل والإنصاف والاحترام المتبادل، وتجنب أسباب التعصب والخلاف، والغرض من هذا المنهج القرآني هو الوصول إلى الحق، وليس مجرد الجدل لذاته كما تضمنته النظرية الأفلاطونية في الجدل، التي تقوم على اعتبار الجدل هدفًا في ذاته. فالقرآن الكريم يذم الجدل العقيم وينهى عنه، ويدعو إلى الحوار الذي هو سلوك عام ومنهج جماعي، وطريقة حضارية في التعامل مع المواقف والأحداث.

دور الأسرة والمدرسة في التربية الحوارية

وتعد الأسرة هي المؤسسة الأولى للتربية الحوارية، والتي تحتاج بداية إلى إعادة النظر في بعض مفاهيمها، ومراجعة بعض أساليبها التربوية القامعة للحوار، وتعزيز الحوار داخل مختلف الأطر الأسرية، سواء بين الزوج والزوجة، أو بين الأب والأبناء، أو بين الإخوة والأخوات، إذ الغالب هو غياب الحوار داخل الأسرة، وحرمان الأفراد منه. ويزداد الأمر استبدادًا وتغيبًا للحوار، إذا اتصل الأمر بالأنثى؛ فكثيرًا ما تُحرم الأنثى من إبداء رأيها إلا في حالات

نـادرة جـدًّا، وقـد تتعـرض للصـد والإنـكار والاعتـراض إذا ما أبدت رأيها أو أظهرت موقفها. فالتربية الحوارية تبدأ من داخل البيت، وهنا لا بد من التفريق بين الطاعة وحُسـن الأدب والامتثال، وحق الحوار وإبداء الرأي، والتعبير عن القناعة والموقف بحرية تامة.

وكذلـك المؤسسـات التعليميـة بحاجـة لتفعيل التربيـة الحوارية، ذلـك أنهـا تعانـي من خلل تربوي وفكري كبير، إذ يغيب الحوار عنها كثيـرًا، وتغلـب عليهـا الأسـاليب الإجباريـة القهرية للطالـب، وإلزامه بما يحتوي عليه المنهج وما يقرره المدرس، ولا يسـمح له بالنقاش والحوار إلا في حدود ضيقة ونادرة، والمطلوب اليوم في سبيل تنمية ثقافة الحوار، أن يصبح الحوار منهجًا وأسلوبًا رئيسًا وثابتًا في التربية والتعليم، لا سـيما في المجالات الإنسـانية، من حيث إتاحة الفرص الكافيـة للطالـب أن يحـاور ويناقـش ويبدي وجهة نظره، ويسـهم في صياغـة المعلومـة وتشـكيل الفكـرة، خصوصًـا فـي التعليـم الجامعي والدراسـات العليـا والبحـث العلمـي. والأمـر كذلـك مطلـوب فـي الجماعـات والجمعيات الدعوية، والأحزاب والتنظيمات السياسـية، أن تجعل من الحوار منهجًا تربويًّا لها، وأسلوبًا عمليًّا، وخلقًا أساسيًّا مـن أخلاقهـا، وأن لا تضيـق أبـدًا بصاحب الـرأي وتعمل على رفضه قبـل الحـوار معه، بل عليها أن تعتمد التربية الحوارية، وتوسـع دائرة الحوار وترسي دعائمه في التعامل مـع مختلف الأطر. والسبب فيما تعانـي الأمـة اليـوم، هـو غياب الحـوار البنّـاء الذي يجمـع الصفوف ويضـم الآراء لبعضها البعض فتشكل لنا رؤية موحدة.

آليات الحوار وأدبياته

يبدأ الحوار من الذات إذا كان الإنسان مستعدًّا للنقد الذاتي، لأن الله تعالى يقول:﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾(الرعد:١١)، فيجب علينا مراجعة أنفسنا لتعويد النفس على قبول الرأي الآخر بحجته، لأن الهروب من التفاعل الإيجابي النقدي للذات، يؤدي إلى انسداد الحوار وعدم التفاعل معه بإيجابية، بمعنى يجب أن نتقبل نقد التراث بصورة موضوعية وعقلانية بعيدًا عن المساس بالثوابت. فالحوار في الأصل هو من أجل فهم الذات أولاً، ثم فهم الآخر والتفاعل معه وليس من أجل الصراع، إنه حوار يستند إلى آليات وأدبيات نذكر منها:

١- الإنصاف والموضوعية: يجب أن يعوّد الإنسان نفسه على الإنصاف، يعطي للآخر حقه إذا كانت حجته هي الغالبة، وأن يعترف بخطئه ويكون موضوعيًّا في نقل الأفكار والأخبار، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ**﴾(النساء:١٣٥).

٢- البعد عن التناقض وسلامة الكلام: ينبغي على المحاور أن يستقيم في آرائه وأفكاره وكلامه، قال تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**﴾(النحل:٩١).

٣- تحديد المنطلقات والأهداف: وذلك قبل الشروع في الحوار، قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا**﴾(آل عمران:٦٤).

٤- البعد عن التعصب: مهما كان نوعه، سواء التعصب للقبيلة أو للمنهج أو غيره: قال تعالى: ﴿**وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**﴾(الأنعام:١٥٢).

٥- الرضا والقبول بالنتائج وعدم القطع بها: قال الشافعي: "ما ناظرت أحدًا فقَبِل مني الحجة إلا عظم في عيني، ولا ردها إلا سقط من عيني". وفي الوقت نفسه لا نقطع بالنتائج باعتبارها نسبية، قال تعالى: ﴿**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾(سبأ:٢٤).

٦- الالتزام بآداب الحوار: كالقول الحسن والالتزام بالوقت المحدد، وحسن الاستماع والاحترام والإخلاص.

وآليات الحوار والتواصل في عصرنا قد تعددت وتنوعت، فمنها التواصل بالكلمات المنطوقة المباشرة كالحوار الذي يجري بين اثنين أو أكثر، أو الحوار عبر وسائل التواصل الاجتماعي كالفيسبوك والتويتر والبريد الإلكتروني وغيرها من الوسائل المستحدثة.

وهكذا عبر هذه الوسائل يمكن أن نرسخ ثقافة الحوار والتواصل مع الآخر، من أجل نشر ونقل القيم الإسلامية والتعريف بالدين الإسلامي وتبادل الأفكار، ومن هنا يتحتم علينا تفعيل الحوار وتشجيعه ليصبح سمة عامة في المجتمع.

المشترك الإنساني في قيمة الحب[٢]

أ.د. محمد جكيب[*]

الحب" و"الكراهية" قيمتان تكتسيان أهمية كبيرة، عندما يتم تناولهما في ظل بعض المعطيات الموضوعية والتاريخية، التي تفرض إثارة القضية ووضعها على طاولة النقاش من زوايا مختلفة تتصل بكيان الإنسان فكرياً وثقافياً واجتماعياً. فبحث القيمتين له ما يبرره، بالنظر إلى الوضع العام الذي تعيشه الإنسانية في خضم الزخم المهول من الأحداث وتتابعها بسرعة فائقة، وكأن موازين الزمن ومقاييسه قد اختلت، حتى إن أحداً لم يعد بمقدوره البقاء بعيداً عن دائرة التأثر بذلك.

لقد وُجد "الحب" و"الكراهية" باعتبار بعدهما الأخلاقي، منذ أن وجد الإنسان، لأن حاجة الإنسان إلى "الحب" حاجة ملحة، ولا نقول إن حاجة الإنسان إلى "الكراهية" حاجة ملحة كذلك، ولكن الأشياء تدرَك بالنقيض. فقيمة الحياة لا تدرك على حقيقتها إلا من خلال حقيقة الموت، وأهمية الليل -مثلا- لا تستوعب إلا من خلال

[٢] نشر هذا المقال في ١٩ من مجلة حراء سنة ٢٠١٠

[*] أستاذ بجامعة شعيب الدكالي / المغرب

حيوية النهار، وارتفاع آمال إدراك الجنة لابد له من وقوع معاني الخوف من النار في القلب.

الحب والكراهية

إن حاجة الإنسان السوي إلى "الحب" كحاجته إلى الطعام. فالإنسان يحب الكثير من الأفعال والتصرفات، ويحب إتيانها لحاجته إليها في المقام الأول، فهو يحب العيش في جماعة بشرية، ويكره الوحدة والانعزال. وعيشه في جماعة وتفاعله معها التفاعل الإيجابي يفرض قدراً من "الحب"، أي يفرض تقديم "الحب" كما يفرض تلقيه. وهذا الإحساس في حد ذاته هو الذي قد يدفع إلى تولد "الكراهية" بمختلف أصنافها، فالإنسان مضطر إلى كراهية أمور كثيرة، مخافة تصدع كيانه وفقدان ما يحصل عليه من حب، ومخافة اختلال توازنه.

لقد رسخ في الذهن أن "الحب" موضوع عاطفي مجاله الأدب والفن وكذلك الدين وخاصة التصوف. وقد لا يخطر على البال أن يكون موضوع "الحب" قيمة من القيم الحضارية، المؤسسة لخطاب ذي خصوصية. كثيراً ما يربط "الحب" بحاجة الحفاظ على النوع وغريزة البقاء، ويربط من هذه الزاوية بالجنس كما يربط بغريزة الطعام، فكلاهما ضرورة لا يُتخلى عنها، وهو رأي الفلسفة الطبيعية. واهتمام الثقافات والحضارات بالقيمتين متفاوت، بل إن للّحظة التاريخية تأثيرها الخاص في القيمتين. فقد نلمس أن نظرة الناس للقيمة أعمق في مرحلة تاريخية ما، مقارنة بلحظة أخرى سابقة،

لأن الوقائع التاريخية تؤثر في طبيعة التوظيف بالنظر -مثلا- إلى ما تتداوله المحافل الاجتماعية والثقافية والفكرية، من قيم فاضلة تسترشد بالحب ومعانيه في إرساء منظومتها المدنية والحضارية، أو من قيم غير فاضلة تلغي الحب وقيمه في منظومة مختلفة لا همّ لها سوى تحقيق مصلحة ضيقة تعتبر الإنسان مجرد وسيلة وليس هدفاً.

هناك حاجة مادية أو معنوية منتظَرة من "الحب"، أي إن "الحب" يكتسب صفة المعنوية أو المادية انطلاقاً من حالة الذات، وانطلاقا من الأهداف والمرامي المقصودة، دون إغفال الطرف الثاني المراد بالفعل، وهنا يتدخل عنصر القصد والإرادة في الفعل. فقد يستهدف "الحب" غاية ما؛ مادية أو آنية، فيصير فعلاً إرادياً متحكماً فيه وفي مراميه وفي مسلكه.

الحب مسلك ذوقي للارتقاء

لكن "الحب" في بعده المعنوي السامي يهدف تحقيق لذة معنوية غير مرتبطة بزمن، ولذلك قالوا إن "الحب" الحقيقي هو "الحب" المتصل بالزهد في تحقيق المصلحة والمنفعة الشخصية. وللمتصوفة بمختلف مشاربهم نظرات إلى "الحب" بهذا المعنى، أي بمعنى الزهد في كل الماديات من أجل تحقيق الالتحام بالمحبوب؛ لأن الإنسان إذا زهد في الماديات وزهد في الدنيا، وتعلق قلبه بحال روحانية تشاهد قدرة الخالق المطلقة في كل ذرة في هذا الكون، وفي كل حركة من حركاته غير المتناهية.. حقق بذلك الحبَّ الخالص لله وفي الله، فتتحول كل الأفعال والسكنات والتصرفات -بفعل ذلك-

إلى مسلك ذوقي للسمو والارتقاء، والنتيجة المباشرة هي الفاعلية الكبرى للإنسان في الواقع.

وكلما توسع هذا الإحساس وتمكن من القلب والكيان كلما انعكس ذلك كله بالإيجاب على المجتمع كله. فلنتصور أن مجتمعات يسودها الحب بالمعنى المشار إليه وفي كافة المجالات؛ الاجتماعية والثقافية والفكرية، فهل ستجد الأزماتُ طريقاً إليها.

اتخذ مفهوم "الحب" في الفكر العربي القديم عدة أبعاد تعكس مدى اهتمام الثقافة السائدة والوعي الجماعي به، كما تعكس طبيعة الذوق الجماعي العام، وهو ما قد يعد نوعا من الترف الفكري البعيد عن انشغال الناس وتفكيرهم. لكن مجتمعاً تسود فيه معاني "الحب" يمكن اعتباره مجتمعاً متسامحاً، مبشراً بقيم فاضلة ترفع قيمة الإنسان في كل مكان، وهي قيم سادت المجتمع بتأثير عوامل كثيرة أهمها الدين وتطور الحياة المدنية.

بأجنحة الحب تُخترق أجواء النفس

لقد توسع متصوفة الإسلام وبعض مفكريه في إبراز قيمة الحب بنبرة مفعمة بالصدق والإخلاص والتطلع إلى الطمأنينة القلبية، وجعلوا ذلك مسلكاً إلى الارتقاء في مسالك العبودية لله تبارك وتعالى؛ على أن أغلبهم لم يفصح صراحة بأن من شأن تمكّنِ هذه المحبة من القلوب والأرواح والنفوس، بناء أجيال من فرسان النهار ورهبان الليل، وكذلك كان الصحابة ﷺ. فحبهم لله ولرسوله كان حباً صادقاً، وهم وإن كانوا استمدوا ذلك من نور مشكاة النبوة

بحكم مصاحبتهم للرسول ﷺ، فإن همَمهم العالية وإيمانهم العميق بالرحمة المهداة إلى الإنسانية، وإيمانهم بأن الله قد أسبغ عليهم نعمة عظيمة، قد فرض عليهم واجب نقلِ وتبليغ هذه النعمة العظيمة إلى الناس كافة. ومن هنا فإن النتيجة المنطقية لهذا الشعور السامي، هو محبة الآخر محبة خالصة لله ترجوا تخليصه من الهلاك المحتوم فلولا كراهية العودة إلى الكفر وكراهية أن يتجبر الشيطان لَمَا انبرى مجتمع الصحابة والمؤمنين ينشرون الإسلام ومحبة الله ورسوله. وما أجمل تعبير الأستاذ فتح الله كولن في وصفه للمحبة حين قال: "فالمحب الذي اخترق أجواء نفسه بأجنحة المحبة، ووصل إلى ربه في بُعد العشق والشوق لدى أدائه لحقوق سلطان قلبه ومسؤولياته نحوه، بأعضائه الظاهرة ومشاعره الباطنة، فإن قلبه منشغل به دون انقطاع وهويته محترقة بسبحات وجه الحق وفي حيرة وإعجاب، وعلى شفتيه كأس العشق.. وعندما تنفرج أمامه أستار الغيب الواحد تلو الآخر ينتشي بمطالعة المعاني المترشحة من وراء هذه الأستار، وهو في ذوق المشاهدة التي لا تطال.

فإذا ما سار سار بأمر الحق سبحانه، وإذا ما وقف وقف بأمره. وإذا تكلم تكلم بنفحات منه، وإذا ما سكت سكت لأجله، فهو أحيانا في أفق بالله، وأحيانا في أفق من الله، وأحيانا في أفق مع الله"...

الحب مشترك إنساني

وأما الثقافة الغربية فاهتمامها واسع بقضية الحب والكراهية. والمتأمل في هذا الاهتمام سيلاحظ أن المعجم يكثر من ذكر

دلالات توظيف قيمتي الحب والكراهية. فـ "الحب" في المعجم عدة أصناف: فهو أولا إحساس ولبوس أشكاله متعددة؛ منها حب الله أو الحب الإلهي وحب الإنسانية، و"الحب" العائلي الأسري، وحب شخص لآخر حب رغبة، أو حباً مادياً أو فيزيائياً. وبتأمل هذه الحقول نلاحظ نوعاً من التقاطع بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية، وهو راجع إلى المشترك الإنساني، الذي تلتقي عنده كل الثقافات، الشيء الذي ينفي حقيقة فكرة "صراع الحضارات" ويؤكد في الوقت نفسه حوارها، بل تتجاوز ذلك إلى تكاملها. فالأمر يتعلق في العمق بمفهوم عميق للحضارة في إطار إيجابي.

لكن عند التنعم في دلالة "كراهية" في الثقافة الغربية سيوجد أنها تدل على إحساس عنيف يدفع إلى الرغبة في إحداث الأذى بآخر مع التلذذ بذلك وبالذي يقع به. ومعنى ذلك أن هذه القيمة مرتبطة إما بحالة نفسية تعوض نقصاً وتغيب الإرادة، وإما برغبة إرادية في تحقيق لذة، أي إن المصاب بداء "الكراهية" يتلذذ بكراهية الآخرين، أو بتحقيق لذة أخرى منقولة إلى مجال آخر لا تتحقق فيه الرغبات إلا بـ"الكراهية".

التأثير التاريخي في المعجم

وإذا سلمنا بأن الألفاظ كائن حي يتأثر بالتاريخ، فإن قيمة "الكراهية" هي الأخرى قد تفاعلت والتاريخ الغربي، الذي عرف الكثير من الأحداث التاريخية التي أكسبت القيمة دلالتها الحالية، فهي تعكس طبيعة الوعي الجمعي الذي صنع تلك الأفكار وقام

بصياغتها. ومن هنا فنحن أمام قيمة تعكس واقعا تاريخيا تبلور في إطار واقع مفعم بالكراهية.

وفي لسان العرب نجد "أن الله ﷻ ذكر "الكَره" في غير موضع من كتابه العزيز، واختلف القراء في فتح الكاف وضمها. وقد أجمع كثير من أهل اللغة أن "الكَره" و"الكُره" لغتان، فبأي لغة وقع فجائز إلا الفراء، فإنه زعم أن "الكُره" ما أكرهت نفسك عليه، و"الكَره" ما أكرهك غيرك عليه. وقال ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ (البقرة:٢١٦)، ولم يقرأ أحد بفتح الكاف فيصير الكَره بالفتح؛ فعل المضطر، والكُره بالضم؛ فعل المختار".

نخلص إلى لمس اختلاف جلي بين الحقلين. فما في المعجم الغربي يحيل على معاني كثيرة لا نجدها في المعجم العربي، وعلل ذلك كثيرة أهمها التأثير التاريخي في المعجم، لأن اللغة كائن حي يتأثر بالوقائع والأحداث. فالقيم والمفاهيم ليست بريئة، وهي تحمل في بطنها زخمها الفكري والحضاري والتاريخي، وعند نقلها إلى واقع فكري مختلف، تصير غريبة عن التربة التي نقلت إليها، فتحدث بلبلة فكرية وثقافية.

إن الحديث عن "الحب" و"الكراهية" باعتبارهما قيمتين، حديث عن العلاقات التي ينشئها الإنسان جماعات وأفرادا فيما بينهم، على الرغم من أن هناك من يعتبر "الكراهية" عاملا من عوامل الحضور، وبأن "الحب" لا يمكنه التغلب على "الكراهية" التي تتغذى في العمق على تبدد قيمة "الحب" مستحضرين ما يذهب إليه بعض علماء

النفس من أن في كل فرد مصدرا دائماً للتدمير، قابلاً لأن ينتج ردود أفعال كلما اختل توازن العلاقات.

الجمال الروحي يولد الحب الروحي

"الحب" ليس عاطفة مطلقة كما تصوره الأدبيات العاطفية وقصص الحب، إذ من الواجب التخلي عن العقل والإرادة في ضبط حركته. فهو يشرك كل قوى الإنسان، ولكن مع بقاء الإنسان محتفظا بحريته ومتحكما في إرادته.

و"الحب" كذلك لا يقع تحت تأثير تقلبات الشيء المحبوب، لأن مهمته تقع خارج هذه التقلبات. هناك حب تام يفترض لقاء بآخر مماثل، والمماثلة لا تعني أن تكون الصورة ذهنية أو مثالية، ولكن تعني إنسانا لا يُشعر بعدم القبول، أي أن يكون كما هو دون تلميع أو زيادة. وهذا يحصل عند الإحساس بالجمال حقيقة، وهو الجمال الروحي الذي يلغي المظاهر ويلمح العمق، من هنا يتولد "الحب" الروحي.

إن "الحب" حقيقة ينظر إلى القيم الكلية وليس إلى الجزئي والعابر. فالإنسانية إذا ما نظرت بهذا المنظار، أمكنها تجاوز الكثير من الاختلاف والصراع والخوف و"الكراهية"، ولكن السؤال هو: كيف يمكن الوصول إلى ذلك؟ قد يقول القائل إن هذا بعيد عن أن يتحقق، لكنه حلم صغير والأشياء الكبرى تبدأ صغيرة. وأظن بأن مجال النقاش والحوار والبحث في الموضوع يلزم أن يبدأ الآن وأن يتجه عمل المهتمين إلى وضع المناهج الكفيلة بصناعة "الحب"

بدل صناعة "الكراهية". لا قيمة للحب إذا لم يكن متبادلا، وتبادله لا يعني التساوي؛ إنه تبادل في إطار الاختلاف مثل اختلاف الرجل عن المرأة، والشيخ عن الشاب، والمعلم عن المتعلم.. فكل طرف يحب باعتبار ذاته في إطار رابطة، وكل طرف يعطي ويتلقى، وما يعطيه غير الذي يتلقاه.

إن مكمن القوة في "الحب" يوجد في الممنوح من جهة كونه لا يفقر المانح ولا ينقص خزائنه كثرة المنح، بل هو الشيء الذي يشعر بالغنى عندما يمنح.

الحب شفرة الفطرة الإنسانية

والمحصل عليه هو ما تحتاج إليه الإنسانية حقيقة وهو الحب، فـ"الحب" يشعر بوجود الآخر. يلمس ذلك في عالم صغير أو علاقة مصغرة بين زوج وزوجة، أو بين الأب وأبنائه، أو الأم وأولادها، لكن هذه الصورة تنطبق حتى على ما هو أوسع من ذلك كالمجتمع المحلي أو المجتمع الدولي.

صحيح أن علاقة المحبة التي تنشأ بين الزوج وزوجته أو الأم وأولادها، هي أقوى وأمتن من تلك التي يفترض نشوءها بين أفراد المجتمع المحلي أو أفراد المجتمع الدولي، لكن المقصود هنا هو ذلك الإطار الدلالي المحيط بقيمة "الحب"، الذي يستقبل ويوزع -في الآن نفسه- عدداً لا يحصى من المعاني التي للحب فيها دور أساسي كالرحمة والعطف والود والانسجام والتآلف والتفاهم، والتفهم والاحترام والتقدير، والإعجاب والعفو والعدل، والتسامح

والليـن والرأفـة والإيثـار إلـى مـا لا نهايـة من المعانـي النبيلـة والقيم الأخلاقية السامية، يحفل بها المستعمل اللغوي في أغلب الثقافات، وفي أغلب اللغات، حتى لا نقول كل اللغات، والسر في ذلك هو أن "الحب" وسـيط تواصلي، يتوفر على شـفرة دقيقة جدا ينبغي البحث عنها في أصل الفطرة الإنسـانية. الشـاهد هو أن "الحب" ليس مجرد شـعور، بل شـفرة تواصلية، انطلاقا من القواعد التي نود التعبير عنها وإبلاغها أو بسطها للآخر. فهو نموذج سلوكي موجود بالقوة باعتباره سلوكا وباعتباره معرفة.

والمنهـج القرآنـي، ومـن خلالـه السـيرة النبويـة التي هـي القرآن المطبق، درجا على التعامل مـع الإنسـان، برغبة حقيقية في تخليصه من أدران الالتصاق بالأرض والانكباب على الوجه والتيه دون هدف محـدد ولا غايـة. وخلاصـة الكلام، إن الإنسـانية مطالبة بالبحث عن عناصر هذا المشـترك الإنسـاني في قضية الحب، وإن كنت أعتقد أن القرآن الكريم والسنة النبوية قد جمعا تلك العناصر كلها وهي تنتظر من يلتقطها.

المصادر

(١) التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، لمحمد فتح الله كولن، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

(٢) لسان العرب المحيط، لابن منظور، إعداد وتصنيف: يوسف خياط، دار لسان العرب، مـادة: "كـره". وانظـر ترتيـب القامـوس المحيـط، على طريقـة المصبـاح المنير وأسـاس البلاغة، تصنيف: الطاهر أحمد الزاوي، دار الفكر ط:٣.

حب الإنسان[1]

فتح الله كولن[*]

الحب إكسير يبعث الحياة.. بالحب يحيا الإنسان، وبالحب يسعد، وبالحب ينشر السعادة في قلوب الآخرين. الحب في معجم الإنسانية هو روحُنا؛ به نحس ببعضنا وبه نشعر. لم يخلق الله رابطًا على وجه الأرض أقوى من الحب في وصل الناس ببعض. الدنيا دار خربة متهدمة الأركان والأطراف، والحب باعث الحياة ومُوقِد النُّضرة فيها. للجنّ والإنس ملوك، وللنحل والنمل ملكات، ولهؤلاء الملوك والملكات عروش يتربعون عليها عبر انتخابات أو أساليب شتى.. ولكن هنالك ملك يتربع على عروش قلوبنا دون حاجة إلى أيِّ انتخاب، ألا وهو الحب. تزداد قيمة الألسن والشفاه والأعين والآذان أو تقلّ بقدر رفعها لراية الحب، أما الحب فهو قيّم وشريف بذاته. إن القلب لم يبلغ ما بلغ إليه من السموّ والرفعة إلا بفضل الحب.. أليس القلب موطن الحب؟ عندما جاء الحب إلى الحصون المحصنة ونصب رايته أمامها مرفرفة؛ فُتِحت له الأبواب على

[1] نشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد: ٦٤، (يناير – فبراير) ٢٠١٨. ونشر لأول مرة في مجلة سيزنتي التركية، العدد:٢٤٨ (سبتمبر ١٩٩٩)، تحت عنوان: (*İnsanı Sevmek*). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

[*] عالم ومفكر تركي.

مصاريعها دون أن تُسفَك قطرة دم. وعندما وصل فرسان المحبة إلى ديار الملوك الجبابرة، تنازلوا عن عروشهم وآثروا أن يكونوا جنودًا عاديين في كتائب هؤلاء الفرسان.

لقد نشأنا في جو تلألأت فيه أعينُنا بانتصارات الحب، وطربت فيه آذانُنا بدقَّات طبوله المدوية، خفقت قلوبنا عند كل رفرفة من لوائه، عانقناه بحرارة وامتزجنا به بعمق، وأخيرًا ربطنا أعمارنا به على طول امتدادها، ونذرنا أرواحنا له ما حيينا. فإن حيينا فبالحب نحيا، وإن متنا فبالحب نموت. نشعر به في عمق كياننا مع كل نفَس، نستدفئ به في البرد، ونبترد به في الحر. في غمار حروبنا تدوي دقات طبول الحب، وبأناشيده تغدو مواسم سلامنا أعيادًا سعيدة.

إن كان في هذه الدنيا البائسة -التي شاع فيها ألف صنف وصنف من الفساد- شيء لا يزال يحافظ على طهره ونقائه؛ فذلك هو الحب، وإن كان فيها حسناء لا تزال تحتفظ بجمالها وعفتها بين آلاف من الحسناوات البائسات اللواتي شحب لونهن وانطفأ بريقهن؛ فإنها المحبة. لا شيء في أي مجتمع من مجتمعات العالم أكثر واقعية وأبقى على الزمان من الحب. عندما يرتفع صوته -أحنَّ من صوت الأم تهدهد طفلها في سريره- تصمت كل الأصوات، وتسكت جميع المعازف متنازلة عن أحلى أنغامها، ومستغرقة في إنصات خاشع.

إن رحلة الخلق في هذا الوجود بدأت نتيجة اشتعال قنديل الحب. فلولا محبة الحق سبحانه للخلق، لما كانت الأقمار ولا

الشموس ولا النجوم.. كل كون من الأكوان قصيدة حب والأرض قافيتها. تدوي نغمة الحب في أرجاء كتاب الطبيعة وأركان النظام الكوني الشاسع، وترفرف رايته في سماء الإنسانية عبر مناسباتها الدافئة. إن كان هناك عُملة لا تفقد قيمتها عند الناس أبدًا، فإنها الحب، لأن قيمة الحب ذاتية. فلو وُزِن الحبُّ بأنقى أنواع الذهب، فإن كفته راجحة لا محالة. قد يفقد الذهب قيمته في الأسواق، بيد أن أبواب الحب موصدة دومًا في وجه الخسارة، ولا يمكن لأي تدخّل خارجي أن يقلل من قيمته.

لم يفكر في محاربة الحب على مر التاريخ إلا أرواح متوحشة أُشرِبت في قلوبها الحقد والكراهية والعداء. وأحسب أنه لا إكسير -كذلك- يُلِين الأرواح المتوحشة ويؤلّفها إلا الحب. كم من مشكلة عجزت ثروات الدنيا عن حلها فجاء الحب بمفتاحه السحري فحلّها. محال أن تُقاوِم الحبَّ أو تنافسه أي قوة في العالم. إن ملوك الذهب والفضة قد انهزموا أمام فدائي المحبة في كل ماراثون خاضوه معهم. أجل، أتى على ملوك المادة حِينٌ من الدهر تَبخّرت فيه ثرواتهم، وكسدت تجارتهم، وخمدت نيرانهم رغم صخبهم وضجيجهم وعروضهم المبهرة وأبّهتهم البراقة، في حين ظل مِشعل الحب متقدًا يلج القلوب ويحيي الأرواح.

إن السعداء الذين ثنوا رُكَبهم في محراب الحب ونذروا حياتهم لنقشه ورَقشه في القلوب، قد حذفوا من معاجمهم مفردات الحقد والغيظ والكراهية والتآمر، ولم يلجؤوا إلى العداوة قط وإن دَفعوا

أرواحهم مقابل ذلك، ومحال أن يلجؤوا. إن رقابهم التي انحنت بالحب رَفعت تحيةَ السلام دومًا للحب، ولم تنهض إلا أمام الحب احترامًا وتوقيرًا. بل عندما اندفع كل واحد من هؤلاء الأبطال كالجياد الأصيلة بالحب، انتفضت العداوة مذعورة وأخذت تنقب عن جحر لنفسها تختبئ فيه، وانفجرت الكراهية غيظًا وكمدًا، وراح الحقد يرتعد خوفًا ورعبًا، والتفّت المؤامراتُ على رقاب أصحابها التفافًا.

إن كان في الوجود إكسير استطاع أن يبطل أشد مكائد الشيطان فتكًا حتى اليوم؛ فهو الحب. لقد أطفأ الأنبياءُ نيرانَ غيظ الفراعنة والنماريد بكوثر الحب، وجمع أولياءُ الحق شتات الأرواح الضالة الثائرة المبعثرة كعقد انفرطت حباته بالحب، وألّفوا بين قلوبهم في عالم من المشاعر الإنسانية النابضة بالحب. لقد كانت -ولا تزال- قوة الحب فائقة متجاوزة تبطل سحر هاروت وماروت وتطفئ نيران جهنم على الدوام. من امتلك سلاح الحب، لا يحتاج إلى سلاح آخر. إن للحب قوة تُفشِل أثر أيّ رصاصة انطلقت من فوّهتها أو قذيفة من مدفعها.

إن حب الإنسان لأخيه الإنسان، بل إن احتضانه لجميع الكائنات بشعور من الرحمة الغامرة، مرتبط في الحقيقة بمدى اكتشافه لذاته ومعرفته بها، بمدى اكتشافه لحقيقة ماهيته وإحساسه بانتمائه إلى الخالق سبحانه. فبقدر شعوره بأعماقه وإحساسه بالجواهر المكنونة في وجدانه، يعي أن سائر إخوانه من بني الإنسان يملكون مثلها

في كينوناتهم، فينظر إلى كل إنسان وكل كائن بعين أخرى، ويحس بهم إحساسًا آخر، ويكنّ لهم في قلبه توقيرًا مختلفًا عما سلف، إكرامًا لانتمائهم إلى الخالق سبحانه، وتقديرًا للجواهر الكامنة في ماهياتهم. إن إجلالنا لبعضنا وثيق الصلة بمدى معرفتنا وتقديرنا للجواهر المكنوزة في ذوات كل واحد منّا.

ولا بأس من أن نوسع إطار الأثر الذي ورد في بعض الكتب على أنه بيان نبوي: ''المؤمن مرآة المؤمن''، ونربطه بالمعنى الأخير فنقول: ''الإنسان مرآة الإنسان''. فإذا نجحنا في تبنّي هذه الرؤية، فإن كل واحد منّا سوف ينظر إلى ذوات الآخرين عبر عدسة الجواهر المكنونة في ذاته، فيعي ما يملكونه من مشاعر عميقة وأمداء فسيحة وكنوز دفينة، ويربط تلك الهبات والعطايا بصاحبها الحقيقي، وذلك يعني أن النور والجمال والبهاء الذي يبهرنا في كل ركن من أركان الوجود، والحبَّ وما يرتبط بمعاني الحب المبثوثة في كل مكان، كلها منه وله وإليه سبحانه.

إن روحًا أحست بهذه المعاني الدقيقة تُنحِفنا بأناشيد ساحرة من لسان قلبها، وتترنم مثل جلال الدين الرومي: "تعال، هلمّ إلينا، شاركنا، نحن أهل العشق، منحنا قلوبنا للحق تعالى. هيا تعال، التحق بنا، ادلف من باب المحبة، اجلس في بيتنا معنا. اُدنُ نتحدث بلغة القلب فيما بيننا، أقبل كي تتعانق قلوبُنا ونتكلم بعيدًا عن الآذان والأعين.. تعال نتبادل بسمات كالورود دون شفاه أو أصوات.. تعال نتقابل كالأفكار دون فم أو لسان.. ها قد صرنا جميعا شيئًا واحدًا،

إذن هيا لِيُناجِ بعضنا بقلوبنا دون لسان أو شفاه. ها قد تشابكت أيدينا، تعال نتحدث بلغة الحال. إن لسان الحال أعمق تعبيرًا عن سلوك القلب، فهلمّ نمسك ألسنتنا، ونتحدث بقلوبنا المرتعشة".

محال أن تجد هذا العمقَ من الإحساس والثراءَ من الحب الإنساني الذي ينبض في عروقنا لدى الفكر اليوناني واللاتيني، أو الفلسفة الإغريقية والغربية. إن التصور الإسلامي يرى أننا جميعًا تجليات متنوعة لجوهر واحد، وأن كل واحد منّا وجوه مختلفة لحقيقة واحدة. أجل، حينما يلتقي الأفراد حول معان مشتركة كالإنسانية الواحدة أو المعبود الواحد أو الرسالة الواحدة أو اللغة الواحدة أو الوطن الواحد أو الأمة الواحدة، يصبحون أعضاء في جسد واحد كما في الحديث النبوي الشريف؛ عندئذ لا تُنافِس اليدُ أختَها، ولا يعيّر اللسانُ الشفاهَ، ولا ترى العينُ عيبَ الأذن، ولا يُنازِعِ العقلُ القلبَ.. فإذا كانت هذه هي الحقيقة، وإذا كانت الجوارحُ المختلفة تتكامل في جسد واحد، فأيّ عقلية منحرفة تلك التي تفرّق بين تلك الجوارح؟

لماذا نحطم وحدتنا؟! ذلك الأكسير الذي يُعَدّ وسيلة بالغة الأهمية لتحويل دنيانا إلى فردوس، وانفتاحِ أبواب الفردوس لنا على مصاريعها، واستقبالِنا بنداء "ادخلوها بسلام آمين"؟! فإذا كان التوافق طريقًا لتوفيق الله، فلِمَ النزاع والشقاق؟ متى نجتثّ من أرواحنا أفكارًا ومشاعر تبعدنا عن بعضنا؟ متى نهرع إلى دروب الحب نعانق بعضنا؟

إن الطبائع والأمزجة -شأنها شأن الطرق المؤدية إلى الله- بعدد أنفاس الخلائق. هذا يقتنع بهذا الفكر، وذاك يهوى ذلك التفسير، هذا يسير من هذا الطريق، وذاك يعبر ذلك الجسر، هذا يرقى إلى القمم بمعراج، وذاك يصعد إليها بمعراج آخر.. كل واحد له نغمة تُحرّك عواطفه، كل واحد له أدواته الخاصة، ولكننا جميعًا نسعى ابتغاء مرضاةِ الله وتحويلِ الأرض إلى جنات فردوسية. فما دامت مساحة السعي ممتدة واسعة إلى هذا المدى، وما دامت الطرق المؤدية إلى الغاية بهذه الوفرة، فلِمَ هذا التزاحم؟ لا سيما وأن الذئاب ينتهزون نزاعاتنا وخصوماتنا ضدنا!

أختم بكلمات بديعة لأحد شعرائنا الأفذاذ إذ يقول:

القوسُ إلى السهمِ،

والشابُّ إلى الشيخِ،

والأنثى إلى الذكرِ،

مفتقر يا صاحِ،

ألا ترى ألا تعي؟

أجزاءُ الكون برمّتها،

تحتاج بعضَها البعضِ.. (الشاعر العثماني بَصِيري)

المشترك الإنساني

نحو بناء معرفي لثقافة الحوار والتعايش

إن حب الإنسان لأخيه الإنسان، بل إن احتضانه لجميع الكائنات بشعور من الرحمة الغامرة، مرتبط في الحقيقة بمدى اكتشافه لذاته ومعرفته بها، وبمدى اكتشافه لحقيقة ماهيته وإحساسه بانتمائه إلى الخالق سبحانه. فبقدر شعوره بأعماقه وإحساسه بالجواهر المكنونة في وجدانه، يعي أن سائر إخوانه من بني الإنسان يملكون مثلها في كينوناتهم، فينظر إلى كل إنسان وكل كائن بعين أخرى، ويحس بهم إحساسًا آخر، ويكنّ لهم في قلبه توقيرًا مختلفًا عما سلف، إكرامًا لانتمائهم إلى الخالق سبحانه، وتقديرًا للجواهر الكامنة في ماهياتهم.

9 789776 704121

دار الانبعاث

www.daralinbiath.com